رسـائلُ

جمال عبدالناصر السريةِ

عبدالله خليفة

الكتاب: رسائل جمال عبد الناصر السرية

الكاتب: عبد الله خليفة

الطبعة: ٢٠١٥

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

خليفة ، عبد الله .
رسائل جمال عبد الناصر السرية – عبد الله خليفة – الجيزة –
وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٣.
٣٠٧ ص ، ١٨ سم .
١– رواية
الترقيم الدولى: ١٩–٤١– ٥٧٧٢ – ٩٧٧
أ – العنوان ١١٩،٧ رقم الإيداع : ٥٧٤٧

رسائلُ
جمال عبدالناصر العسريةِ

روايـة

(١)

يتدفقُ حشدٌ غريبٌ في الشوارع، أسمالٌ تخرج من النهر، ومن لحاءِ الشجر، ومن الكساراتِ المليئة بالغبار ومن الأقمار وشظايا الحجر، ومن بين الورق الأصفر الذي داستْهُ الأحذيةُ في كلِ مواسم الخريف، ومن داخل الأكشاك التي حُشرت فيها الهياكل العظمية والدائخون من الذبحات الصدرية والسل وخواء العقول والجيوب.

هذا الجمهورُ لا يعرفه، هذا النمل البشري لم يُعدْ من قبل، في ظل الاحتفالات المهيبة، إنه يتغلغلُ في بدلتهِ العسكرية، ويشوي الضفادع في الليل، النهرُ صمتَ فجأة، وظهرتْ التماسيحُ تضحك، الشعبُ يزحفُ مثل النمل الكثيف، يملأُ الأرصفةَ ويقعدُ على الأسفلت ويعطلُ الباصاتَ والسيارات والحفلات في الليالي الباردة المملة.

يحدقُ بمنظارهِ المُقَرِب، المياهُ الحارةُ تتدفقُ فوق أجساده، تصليه بنيران مُحولةً من النهر، مطرٌ ساخنٌ وهو يتنـــاثرُ ويعـــودُ يتكـــون ويتمـــسك بالأحجار. أهو نفسُهُ الذي كان يزحفُ في الأرياف والشوارع ويجـــري وراء قطارهِ أو سيارته؟

ما هذا يا محمود؟ كيف خرج كل هؤلاء من سمح بهذه الفوضى؟ لم أقل شيئاً من ذلك! من وراء هذا العصيان والتسيب الغريبين؟

سيدي نحن لم نأمرهم. نقاومهم في كل لحظة. لكنهم متشبثون بهذا الخروج والتجمهر، نضرب، نضرب بقسوة، ولكنهم يعودون لأماكنـــهم. هل نستخدم الرصاص؟

لا! هم أولادي، أعرفُ طلبةَ الجامعات يتحمسون للوطن ويزايدون علينا.

ليسوا هم طلبة جامعات، بل عامة غرباء، ورثاث خلق طَلعوا مـــن المقابر.

من المقابر؟ ماذا تقول؟

ضاقتْ بهم الأرض.

ألم أحررْ الأرضَ، ماذا يريدون أكثر؟

لا يا سيدي. لم تحررْ الأرضَ بعد!

ماذا تقول؟ في أي سنة نحن؟!

يتأملُ قامتَهُ في المرآة، يرى أكثر من وجه.

موسى بشعرهِ الكثِ السائبِ وثوبه الأبيض القذر المغسول برملِ الصحارى يتقدمُ إليه وينحني:

ألم أقلْ إنك إلهٌ؟

كفْ عن هذا الكفر!

لماذا تنكرُ نفسكَ يا أخي؟ لماذا تتفعى وتندسُ في الورق الأصفر والأبيض وأنت شمسٌ طالعةٌ من وراءِ الكثبان السوداء؟ أنظرْ إلى أصابعك كيف تلدُ الكفورَ والمصانع والآلات المزهرة، كيف يرتفعُ الطوبُ من بين الأجداثِ والمقابر وتلالِ التراثِ الملأى بجثث العفونة من نفحِ يدك؟

لكن أن أكون إلهاً؟

لم لا؟ غادرتْ سماءكَ الفارغة، المملة، بين الملائكةِ والعفاريت، الثنائي الغرائبي، وبدأتَ التاريخَ المختلفَ، الإلهُ في الناسِ، والنورُ ليس في الإهرام بل في صكوكِ الأرضِ تُعطى للمعدمين، والآلاتُ رفيقةٌ بالعاملين، والأشجارُ المثمرةُ تنهمرُ عنباً ولوزاً وخوخاً على الجائعين، جاءَ زمنُ قيامة الإنسان!

خذوه!

يجلسُ مسترخياً، وعصاهُ تتمددُ وتصيرُ ظلاً طويلاً، يلتفُ على موسى، الذي يتأوه، ويُخرجُ من يديهِ دوداً ينتشرُ على البساط الفارسي المنمنمِ بالأشكالِ الهندسية الراقدة. يتجمعُ الدودُ على العصا، تمشي نحو أنفهِ الضخم، تدخلُ فيه طوابير، وتنطلق صفاراتُ الإنذار، وتمشي القطاراتُ

المحملةُ بالجنود، أسلحتُهم تلمع، يطلقون النارَ على الظلال، يدخلون أنفاقاً ولا يخرجون. مصانعٌ كثيفةُ الدخانِ تتوهجُ بنيران، وموسى يُـربطُ ببدلـةِ المجانين، يُجرُّ بقوة، وهو يصرخ: لا إلهَ إلا أنت!

يقتربُ من نعيمةَ الراقدةِ على السرير، هذا الجسدُ أصبح في خطـر، وهذا الوجهُ هادئٌ مثل صخور الفراعنة يتفتت، يجلـس ويتأمـلُ البـهاءَ والجمال والمُطلقَ، شعرُهَا أسود يرفضُ الاعترافَ بالزمن، وثدياها هضبتان، وتنطلق موسيقى هادئة، كانت تعيدُهُ للطينِ وقوارب المجدفين في النهر.

يتحسسُّ حرارتَها. يضعُ كمادةً أخرى، تفتحُ عينيها:

ألا تزال ساهراً. أنا بخير!

تقبلُ يدَه.

تلاحظُهُ كائناتُ العمارةِ زوجاً هادئاً، وامرأةً ساكنة، وشقةً لا ينبعثُ منها صراخٌ ولا بكاء، عسكري تحت أبطه جرائد وكتب دائمـة، تطـيرُ فراشاتٌ من عينيه، فجأةً رأوا صورتَهُ في الورق المبهر.

يصطخبُ السكانُ قربَ المصاعدِ وداخله وفي إنتظارهِ وتعطله، وجمالٌ يصعدُ بهدوء، كأنه يحذرُ أن يصطدم بزهور نابتةٍ بين ثغراتِ البلاط الشائخ.

الصبي يطالعُ حذاءَهُ الأسودَ الضخمَ الذي يقبلُ البلاط.

ماذا حدث لك يا سمير؟

سقطتُ وأرى حذاءك القوي.. القوي!

يحمله ويقبلُ الفتى الضئيلَ في خده.

يأتي حاملاً ورقاً: سلسلةُ همومٍ منتشرةٍ في الحروف، كتبٌ ومجلاتٌ طالما خدعته، يتذكرُ كيف نامَ أخواه على مخداتِ كتبهما الضخمة، وهو يجري في أوردةِ الأرض.

يعودُ لغرفته، أبٌ مهموم، في زمنِ الملكِ صديق الراقصات.

نعيمة هل نمتِ؟

كيف يأتيني النوم وأنتَ قلقٌ تهزُّ السرير كما لو كنتَ تهز العرش؟

لن أهزَ العرش، بل سوف أسحقه.

لا تتكلمْ بذلك فلست سوى ضابط صغير.

بل عقيد، سكتُّ طوالَ عقدين من السنين، قرأتُ كتباً بعددِ موجات النهر، فآن لهذا الرقص الداعر أن يتوقف في القصور.

أتكفي قراءة الكتب لتغير أرضَ البراكين والطمي وكهوف السحرة؟

ينحني رأسُهُ على الكتاب. يغفو. يرى كائناً غريباً يتقدم. يسمع أصواتاً تملأُ الفضاء.

(إنهضْ يا أوزريس، أنا ولدكَ حوريس. جئتُ أعيدُ إليك الحياةَ لم يزلْ لكَ قلبك الحقيقي، قلبك الماضي)[1].

النافذةُ تصهلُ بقوة، تنفتحُ ويهب أعصارٌ.

---

[1] من كتابِ الموتى.

يصحو، والكتابُ يطيرُ ويضربُ الزجاجَ، وتنهضُ نعيمة خائفة.

السماءُ تتفجرُ ببروق، زوجتُهُ تحضنه.

في كلِ خميس يأتي حاملاً وردةً لها. كانت تضجُ وتصرخ وتبكي حتى هدأت، عرفَ مفعولَ الياسمين، من العنابر والثكناتِ ومن بين فوهاتِ الدباباتِ يأتي هادئاً، يطيرُ من السماء وينغمرُ بالطين، يشيعُ الحبُ في السلالم الضاجةِ بالصراخِ والأسئلةِ والشتائم. النسوةُ أول من إنبهر به. الرجالُ ضجوا بالغيرة:

ما هذا العسكري؟

لم يروا عسكرياً جميلاً، لم تعاشرْهم بدلةٌ ذاتُ نجمةٍ و لم تتزل مطرَها الناري.

ماذا بك يا جمال يا حبيبي؟

أنا بركان.. أعذريني، أعماقي تتفجر.

أنت لا تنام، لا تشبع، وتجري لهذا الجيش .. الحثالة!

لا تقولي ذلك!

في لحظةٍ كان كارثةً. تذكرْ المماليك، تذكرْ محمدَ علي، تذكرْ هزيمةَ عرابي!

لا، لا! سيكونُّ هذه المرة فجراً جديداً.

دَرّسْ في الكلية العسكرية، أكتبْ مقالات، كتباً، لكن لا تمشي بين الأسراب المجهولة المنقضة في الليل!

لا أعرفُ الكتابة، بقدر ما قرأتُ تنامُ السطورُ تحت قلمي. ثمة إتصالاتٌ غريبةٌ بيني وبين الأبطالِ والشهداء والأموات. تمتدُ أفاعي الحياةِ في أحلامي من بين السافانا والبردى، يظهر صناعُ الأهراماتِ يكلمونني.

خذْ أقراصاً مهدئةً قبل النوم.

يصرخُ في البريةِ الخالية من العاشقات، المليئةِ بنسوةٍ يسجدنَّ للمخابزِ ورياضِ الأطفال وفساتينِ السهرةِ وهو يدخلُ جوفَ دبابةٍ ويقتحمُ القلاع.

فتاةٌ جميلةٌ هادئةٌ هامَ بها في المدينة، الوحيدةُ التي دخلتْ في زقاقِ فقرهِ وقَبَلته. النسوةُ الأخرياتُ ضحكنَّ على ثوبه، والحقيبةِ المهترئةِ التي يحملها.

حبسَ كلَ عفاريت القرية وأضاءَ لمبةً في روحه.

يتأملُ القلاعَ المملوكيةَ وكيف يقتحمها.

أدمنَ الشطرنج.

أخواه هارون وإبراهيم يفترقان منذ أن لعبا الكرة. كبرَ وأحدهما يدوامُ في المسجد والآخرُ في الخلية. هذا يذهبُ لمكتبةِ الأزهرِ والآخر مكتبة الهلال. هذا يبيعُ وذاك يشتري، وهو يطلعُ على الحروف الميتةِ التي يقرآنها ويفضلُ الترولَ للجداولِ الحية حيث الترعُ تضجُ بأجسادِ الفلاحين والنسوة المتلفعاتِ بالأغاني وخلاخيل السحر والمياهُ تغيرُ الجلودَ والتضاريس.

يشتبكان ويفضُ نزاعَهما، يطردُ هارونُ إبراهيمَ وهو يسهرُ معه في العراء.

حتى جاءتْ نعيمتهُ وأسكنتهُ فسيحَ جناته.

تزوجها. أمتلأتْ عيادتُهُ الحربية بالأشباح، يقتحمون القصور، وبساطُ ذلِ القرون كله تحت حذائه.

أخواه يتسللان إلى جيشه، يتحللان ويتكلمان كلاماً غريباً:

جمال طول عمره لا يعرفُ الناس.

منعزلٌ وعسكري مغلقُ الرأس.

هو بلا بوصلة، بلا عقيدة، مجرد بدلة فارغة!

يسلمُ مصرَ لضوارٍ جديدة!

حشودٌ من الضباعِ تحيطُ به، الوجوهُ البيضاءُ النازلةُ بالمظلات، الأجهزةُ التي تتنصتُ على إلتصاقهِ بنعيمة، عيونٌ كثيرةُ تحيطُ بدروبه، والقهوةُ قبل أن يشربَها سممتْ عساكرَ قرويين.

يحتضنُ أخويه ويريهما جسدَهُ المثقوب.

هؤلاء رفاق السلاح لا تطلقوا عليهم كلماتكم الجارحة.

يعودان لكائناتِ المستنقعاتِ ويطلقان الورقَ والجرادَ في السماءِ الواعدة بشم النسيم.

تعودُ الضرباتُ المخيفةُ على الأبواب في منتصف الليالي المقمرة:

تتدفق الشاحناتُ المليئةُ بالنظاراتِ الطبية والأجساد الضامرة متجهةً للصحارى، وتنتشرُ معسكراتُ فراغِ المفكرين المجبرين على الصمت.

تهمسُ نعيمة:

جمال ليكنْ صدرَك بحراً.

لم يقرأ أخواه الطمي.

هل كانوا وهما الثرثاران يتصوران حياته المغيَّبة بين السنابل والـــذرة الريفية المغمورةِ بالعتمةِ والكلاب صمتاً وسكوناً وإجازة؟

بدلةٌ عسكريةٌ شاحبةٌ تتقدمُ لأربعين قرناً مـــن الحـــضارة الدمويـــة لتخترقها بنصلٍ وردي.

رجلٌ شابٌ يمشي بين الحشود المضروبة والنسوة المُخَدراتِ والمقـــابر الحيةِ قرب الفنادق والماء النقي.

من نسلِ الصحراءِ، من صرخةِ حوريس، من تقطعِ أوزريس، مـــن ذكاءِ عمرو، من بسالةِ خالدٍ، من نقاءِ علي، يطلعُ من حصارِ الـــسيارات المحروقةِ والمدرعاتِ الجائعةِ للحمِ النيليين، ويمشي بين حقولِ الجثثِ المزهرةِ حقداً وخططاً.

يحركُ البدلات العسكريةَ للقرويين المليئةِ بالأشباح والتمائم فيحصدُ غباراً.

ينغمرُ في الحاراتِ والحقولِ يصافحُ المجندين والـــشهداءَ والأمهـــات الثكالى.

كلما مشى مع أحدهم رأى كبشاً أو نعجة. تعرفَ بودٍ على برميلِ لحمٍ فوجدهُ يحلمُ أن يكونَ ملكاً.

إستعانَ بضابطٍ عتيق أخذهُ واجهةً فأنتفخ الكهلُ وغدا بالونةً تجذبُ كلَ الغربان.

نعيمة تهدهدهُ وتترعُ الشوكَ اليومي وحراشفَ الحيات السامة وتهمس:

لا تحاولْ طريقَ الشوك والقبضات والخناجر.

كلما غضبَ هدأته، كلما ثار دمُهُ أخذتَهُ لزهرِ التراث، وزهد الرهبان والصوفيين والشهداء.

حين صادقَ ناجياً وتعرف على قبيلةٍ كاملة، ودخلَ في مجالسِها وحكاياتها، التي تعودُ لإخناتون، رجعَ إلى العمارة مثل تمساحٍ طافح نحو الخصب.

ليقولَ لهُ فكرتَهُ المخيفةَ إحتاجّ لدوي مخيفٍ من القطارات وضجيجِ سهراتٍ خادعة وتبادل كتبٍ عن ممثلي السحر والنجوم.

صرخَ ناجي في الكون وقلقلَّ النجومَ:

ماذا تريد أن تفعل؟ أي عمل مخيف هذا؟

لأولِ مرة منذ بدءِ التاريخ سيصعدُ فلاحٌ للعرش!

أين التيجانُ والقنابلُ المتساقطة وقوافلُ المدرعاتِ المحترقة في سيناء؟ كلها تلامسُ جسمَهُ وتتشظى بعيداً.

كلما فاتحَ ضابطاً إنهارتْ عمارة، وجاء حشدٌ من أطفـــالٍ يتـــامى لذاكرته، حتى أخذت عروقُهُ تنسجُ حديداً، ومضى إلى شقتهِ متوقعاً قيوداً تنقضُّ على معصميهِ وتمزقهما، وزوجتُهُ تصرخُ تحت التعذيب.

شجرةُ الوردِ الصغيرة المزروعةِ بين الكثبان والمسامير والقنابل راحتْ تنمو.

عساكر طلعوا من بين أشجارِ الشوكِ وحفرِ المـــدرعاتِ وكهـــوفِ السحرة وحقولِ الذرة المحروقة.

هؤلاء رجالٌ كلما وضعَ أحدُهم يدَهُ في يدِ الآخر لبسَ كفنه.

الرجلُ الذي يصنعُ طبخةَ الموتِ للقصر يلتفُ بالأسماء المستعارةِ ولا يغرقُ في البحيراتِ المرة.

هؤلاء سيقتحمُ بهم مملكةَ الموت.

بين الحشود، أمام الملايين يصرخ، يحركُ الشجرَ العتيقَ البالي، يهزهُ فيخضرُ ويثمر، إستطاعَ أن يكتشف أهراماتٍ جديدة، وأوراق بردي مخيفة.

راتبٌ زهيد، بدلاتٌ ثلاث، سيارةٌ من مخلفات المَلكية، أسرةٌ تندفعُ للمال فيتركها، وعيونُهُ تحفرُ بقعَ القرى الضارية الجوع، ويمشي بروحهِ بين الأزقة، لكن سربَهُ الكثيف السيوف يتهالك على المتع والبيوت والأراضي، وتضجُّ الطبولُ حولَ رأسه، وتنتزعُهُ السواعدُ والإشـــاعاتُ والأكاذيـــب، ودخل صحراءَ هائلةً تمتدُ من الماء إلى الماء، وجاءتْ التنانينُ الكثيرةُ وأطلقتْ نيرانَها في وجهه.

ينفضُ الوزغَ من حوله، يحطم معابدَ قديمة، يَخرجُ سحرتُها يضجون بالبكاءِ ومعهم نسوةٌ عمياواتٌ يكذبنَّ بالنبؤات.

يحرقُ الورقَ وتتطاير الأسماء. لم يتحرك شيءٌ لولا(أعدوا لهم من قوة)، ثم جرتْ السيوفُ والخيلُ تغيرُ الخرائطَ وتعطي الأنهارَ والبساتينَ للبدو. غلبَ محمدُ علي المماليكَ الزبالةَ الأخيرةَ للقرونِ الرثةِ، وغلبهُ الأنكليز. وجاء الفلاحُ ليغلب الجميع!

وبعد ذلك فلتشدو نعيمة بالمحبة!

أخواه يقرآن وينغمران في الخلايا المنتجة للعسل أو للخل فيما هو يتوجه للكليةِ الحربيةِ وريثةِ البداوةِ العريقة، يَتسللُ لذروةِ أعصابِ الرأس، ووحدُهُ لا يستطيعُ أن يُدخلَ شعرةً.

عرفَ أسرارَ الصحراء وخطى البدو والقوافل لاحتلالِ مدن العنب والخبز والجواري، وصارت عضلاتُهُ من الدباباتِ والطائرات وزحفَ بعد عالم من الحرائق والأنتظار والكوارث، وأزاحَ في يومٍ واحد سلالةً وقملاً كثيفاً في شَعرِ الفتاةِ الحوريةِ العبدةِ المجلودةِ على شاطئ النيل.

القوةُ غيرتْ كلَ شيء، فلتستمر تنشرُ المداخنَ والمزارع في كل مكان. وهارون وإبراهيم يُقصيان، والأمُ تأتي من أعماق الطين، لا يزالُ دخانُ الخبزِ في ثوبِها، ووجبةُ الجرادِ في لسانِها، تخترقُ صفوفَ الجندِ والشجرِ والعيون.

جمال ماذا تفعل؟ أتسجن أخاك، هذا العابد المصلي الطاهر الذي لم ينسَ فرضاً؟

لقد إستخدم بلطجياً لقتلي. أستأجر مثل العتاة رجلاً للقتل، وقتل من؟ قتلُ أخيه الذي يعمل للناس خيراً!

ثمة من يفرقُ بينكم. حلمتُ بثعبان يشربُ النيل.

أتريدين زيارته؟ أنصحيه أن يعتذر.

لكن الأمَ غطتُهُ بعباءةِ شجرِ السدرِ والحبِ ولحافِ الأمومةِ الذي أغفى عيونَ الحراس، ليهربَ ويمضي في طريقِ الصحراءِ والشياطين وهامان وفرعون.

وجاءتُهُ الأمُ مرةً أخرى، كلما فاضَ البحرُ بالغضبِ أمتلأ جسدُهَا بالندوب، تتحركُ التربةُ النوبيةُ من صندلِها الخافت، وتمشي الأشجارُ في معيتِها وهي تترف.

جنودك قتلوا ابنَ أخيك هشاماً هذا الذي كانَ مثل ابنك!

ثمة خطأ، خطأ فظيع!

يا جمال لماذا تسجن إبراهيم؟ هذا الذي يرعى المساكين.

أخافُ على المساكين منه!

لم يؤذِ أحداً، يوزعُ ورقاً وكتباً على التلاميذ، مرة مشى بصعايدة إلى قصر الباشا.

زوريه وإذا هربَ ستأكلُهُ ثعالبُ الصحراء.

يضيءُ خلاياهَم بمصابيح الرهبان والقرامطة والصعاليك فلا يجدُ من عسكرهِ سوى أكلِ لحمِ الناس. يُحضرُ الحمرَ والصفر ويوزعهم على المصانع والدواوين فلا يرى سوى حشراتٍ ضارة.

هل يداهُ خائنتانِ للطين؟ يدققُ في أسعارِ الفساتين النادرةِ لنعيمة ويتبرعُ برواتبهِ فلماذا يحيطهُ المتهالكون على المتع والأشياءِ؟ يبحثُ عن الزهادِ فيجدهم غائصين في الأديرة والمكتبات المثرثرة ووراء أسوارِ الكلماتِ الشائكة والمكاتب الفاخرة والنظريات المتصحرة.

أغلبُ أعضاءِ الخلية الكبرى من الوزراء والقادة صاحبة مفاتيح الخزائن والبساتين والشركات تسكرُ وتلهو ليلاً وبعضها حتى نهاراً، ويخضهم ويكاد حليبُ أمهاتِهم أن يظهرَ منهم فلا يجد سوى الانحناء والابتلاء.

جسدُهُ ينطلقُ رصاصةً بين الجموعِ والأدغال والثلوج، منذ أن قررَ أن يركبَ الدبابةَ ويطيحَ بكلِ شيء، وها هي الجموعُ تقتربُ منه، تخرجُ من أقبيتِها، وغيرانِها، ومخاوفها، وتصرخُ ضده!

بعد أن غيّرَ السجادةَ الأرضية المليئة برسوم الكهنة والسلاطين والمجانين تقول له أمه:

ماذا فعلتَ يا جمال؟ الذين حولك كلهم لصوص!

(٢)

في بهاءِ الشباب، في ضوءِ الفجرِ السياسي، حيث تتألقُ النجومُ الصغيرةُ لتصيرَ إنفجاراً سماوياً، يجلسُ جمالٌ والعتمةُ حوله، ومصباحٌ صغيرٌ يكشفُ سطورَ حلمه، هنا أسطورتُهُ تتحركُ على قضبانِ أوربا العجوز وتدهسُ القلاعَ النخرة، النَقاشُ الذي يلونُ القارةَ بالدم فتزهرُ قمصاناً سوداء، أيها الأئمةُ الكبارُ ساعدونا في تجليةِ الأبصار.

نعيمة تقترب بخفوت، شبحٌ أنثوي مسموحٌ له بالاقتراب من العقرب الذكوري الذي يرفعُ ذيلَه، الغاراتُ الليليةُ هدأتْ وما زالتْ إنفجاراتُها تدوي في سمعهما.

ماذا تقرأ في هذه الساعة؟

تقتربُ كأنها في أولِ المجرةِ الرُبانية، تمسحُ على رأسه وكأنها تسقطُ القبعةَ العسكرية.

شبحُ إبتسامةٍ على شفتيها:

إنه نفسُ الكتاب المهترئ؟!

ليس مهترئاً إلا من أصابع المحبين.

(كفاحي؟!)، لو أنك سألتَ أرضنَا لفاضت.

لم يكن من السهل العثور على هذا الكتاب في ظل هذا الحصار.

وباللغة الأنكليزية أيضاً، أي تعبٍ هذا؟

أخرجتْ له صورةَ راقصةٍ مذهلة! إنتفض!

أنظرْ يا سِيدي وجدتُها تحت فراش عبدالحميد!

التفَّ الكرسي، وحدقَ بإنبهار بساقي فتحية، الخلخال في الأسفل، كما رنَّ مراراً بين عظامِ رأسهِ الفارغة، إلا من الهوى والهـــوس وقطـــف النجوم في الظهيرة، ولم يستطع أن يكورَ الصورة ويعجنها بأصابعهِ القاسيةِ التي غدتْ حنونة فجأة.

سوف أعاقبه بشدة!

لا داعي لذلك إنه مجرد ولد!

أنت تقولين ذلك وتشجعين هذه الشهوةَ الرعناء!

أية شهوة لديه.. ما بك يا جمال؟

عبدالحميد لا يتقدمُ في دراسته، علاماتُهُ متدنية. أي معلمين أفاضـــل هؤلاء الذين لا يأبهون بمركز والده الخطير؟ ليبحث عنهم. منى تغـــوصُ في الورق وتحترق.

تأتي نعيمة مأخوذة، وبدأتْ شعيراتٌ بيضاءُ تغزو ليلَهـــا الفـــاحمَ، فيتألم، تقولُ برعب:

عبدالحميد ألفَّ رسالةَ الماجستير، ونصفُ دستة من الدكاترة ساعدته!

أحضريه.

يتقدم عبدالحميد بكبرياء وشموخ، هيكلُهُ النحيفُ وقصرُهُ يطلقـــان طاقةَ خيلاءٍ غريبة.

أتستعين بآخرين لصياغة عملك؟

معاونة محدودة جداً.

أنسَ هذه الرسالةَ وأبدأ من جديد!

الشابُ مأخوذ، يتفككُ إلى أجزائه الصغيرة الدنيا، يعول:

دعني آخذُ كلَ المعرفة والشهادات، أصيرُ عملاقاً بين هؤلاء الأقزام، أكونُ وريثاً لك!

لا تصلح حتى أن تكون وزيراً أو سفيراً. أذهبْ وأدرسْ من جديد!

ومنى تحرثُ في أرضِ المعرفة، تبعدُ بردى السحرة والكهنة، وتدخلُ التوابيتَ والأنفاق بضوءٍ ساحر. لكنها تتعلثمُ عنده:

أنا فرعون جديد؟

لا تستطيع أن تكون.

لماذا؟

لستَ من سلالتِهم.

أنظري للكتابات على أوراق البردي والرسوم كأني واحداً منهم.

باللون ربما، بالشكل ربما، ولكن تلك أسراتٌ طويلة.

دراستك مليئة بالأسئلة والشوك، لكنني أحترمُ رأيك ولا أعـــرفُ كيف أخرج من هذا الدرب. واصلي الكتابة!

أعملْ ما تقدر عليه يا أبي، طريقكَ كله ألغام!

في الشارعِ المضيء، المزهرِ ضوءً وفرحاً، تأتي الدرابكُ والـــصنجاتُ والطبولُ تجعلُ للمقعدين والموتى أجنحةً، وحتى الأشجار الجامدة من عهد الأيوبيين تضحكُ وتنتشي، وورقُهَا يمطرُ حناناً شتائياً وربيعاً مبكراً، وناجي يأخذهُ من ساعده ويمشيان ويريد أن يدخله للمرقص الحانة، وهو يسحبُ ترددَه.

بعد أن مشى عنه صاحَ بناجي:

ألا تريد أن تصحو ليلةً واحدة؟

ماذا ستجدُ في هذا البلد، الضجرُ يأكلُ ارواحَنا. تعالْ طالعْ الراقصةَ الفاتنة، لتخفف من خطط الشطرنج.

هؤلاء هم صحبه، من أين يحضرُ أبطالاً؟ لم تعدْ الملائكةُ تنزلُ لتقاتل مع المؤمنين. متى سيتحولُ النوبيون إلى مخترعين؟

يعّرفهُ ناجي بضابط مسيحي.

هو أحمر يا جمال!

الشارعُ الموسوقُ الراقص، تتحركُ أشياؤهُ في روحه، حتى النـــهر لم يستطع أن يختلي بفؤادهِ هكذا، ويحدق ناجي في ساقي فتحيـــة الورقيـــة المسيطرة على الأفق، ويدغدغهُ:

لمرةٍ واحدةٍ ندخل الحانة. جرّبْ مرة، لن تخسر شيئاً، لـــن تظهـــرَ العفاريت، وهي علبة أو علبتان ثم نحلقُ على الشجر الطائر.

أذهبْ وأستمتع! لكن أنا لا أحب الشراب، أفضل القهوة، وأحبُّ الروايةَ وأغاني أم كلثوم. لكن لن أجلس في هذه الحانات الضاجة برقص الأجساد. ليس ثمة سوى شخصية واحدة في نفسي. لن أزدوج، وأغدو زجاجةً ومصلياً، لن أجمعَ بين الإله والشيطان أبداً!

على السجادةِ يحلق، يغتسلُ بمطرٍ سماوي راعش، كلُ الأوشاب وذرات الغبار وقلق نعيمة وصور فتحية وخلاخيلها وأحذية الأنكليز وقبح الملك كلها تتساقطُ تحت أصابعه عند بوابةِ المسجد، كلُ الغاباتِ الشوكيةِ والحسدُ والخرزُ الشيطاني والنمائمُ تترنحُ منصهرةً كأنها طيورٌ تحترقُ ولهبها وراءه، ودخانها لا يحرقه.

ناجي لا يتغير، يصادفان لويس، ناجي يقلبُ وجهَهُ، وجمال يحضنه، يعزمه على كأس شاي متفجر بالحمرة والأعشاب السحرية والسكر يتصاعد في نشوة.

ـ كيف ثكنتك، وأهلك في الزمالك، لماذا تكره هتلر؟ إنتصار الألماني العظيم مؤكد، تلك قارةٌ رثةٌ، ونحن قرب النهر العظيم سوف نمدُّ حبالاً للنجوم، وتتساقطُ في أيدي صبيتنا قلائدُ الأحلامِ والكواكبُ الصغيرة النحاسية، لن تكونَ الأهراماتُ سوى أكذوبةِ الموتِ البخيل، وبناتنا لهن الخلود!

حاول ناجي أن يقطعَ الحبال، أن يصنعَ دعايةً ضد الشاي، ويقاربَ بين الصليبِ والصليبِ المعقوف، لكن لويس كان يبحثُ عن ترابِهِ والمسيح.

ماذا بك يا جمال؟ كيف تعقدُ مثل هذه العلاقة مع هذا؟ ألم تحذرنا منه؟ ماذا جرى لك، ليست سوى بضعة ساعاتٍ قليلة، وتنقلبُ هذا الانقلاب؟!

نعم، إنقلاب. روحي إنقلابٌ يا ناجي.

في الروح هناك بقعةٌ غريبة، هناك الإخوانُ، هناك المسجدُ الذي ينهضون له ثلاثتهم سوية، هناك الفجرُ المشعشعُ في القرية بالياسمين والجمر، تتحدُّ الفراشاتُ والوريقاتُ البيضاءُ فيه، وتمشي سطورُ القرآنِ حليباً ودواءً وحباً، الأشواكُ المزروعةُ قبل أيام، تصيرُ عظامَ سمكٍ لذيذ، وشبكاتُ الليلِ والخيلِ والخوف تذوبُ في الكف مرايا وزهرات.

حين يمسكُ جمالٌ هارونَ وإبراهيمَ يمشي معهم الحبُ، تتوزعُ على الأراضي الصغيرةِ المجدبة الحبوبَ، والسمادَ، وتُخربُ الأكاذيبُ بالحلوى، ولا يعود الأطفالُ يبكون أمهاتهم وآباءهم بمرارة.

الانقلابُ يأتي في الصحراء، والقنابلُ تتساقطُ قربَ جلده.

يجثمُ مع أقرنائهِ في سيارةٍ تقتحمُ الصحراءَ برعب. اللورياتُ المليئةُ بالجنود والقطعِ الصفراء من الشاحنات والدبابات تحبو على الرمال.

الخيمةُ والضابطُ الإنكليزي والخريطة وأصابعُهُ البيضاء تحشرُهم في الخطوط والجبال والخيام ومستنقعات العظام. في الخيمةِ يكونُ الليلُ والنجومُ والسجائر والكتب وأضواءُ المدنِ البعيدة والحانات والصحف والبرلمانات ولكن لا تزالُ الأصابعُ البيضاءُ تقتحمُ أنفه، والرتلُ مغمورٌ بمطر من القذائف، وأجزاؤهُ المعدنيةُ الهشةُ تتفتت، لم يسعدْ من قبل بهزيمة، والجنودُ الغرباءُ السود يتحولون إلى قطع محروقة.

ثيابهُ ممزقةٌ، والدماءُ تغسلُهُ، وهو يمشي في البرية، النباتاتُ الشوكيةُ والأزهارُ الصفراءُ الطالعةُ بجسارةٍ من التُربِ الصخريةِ واليابسة تذهله.

يأخذهُ البدو مع أبلِهم، يطالعُ سياقاهم المبتورة، رجالٌ يمشون بخشبٍ وعصي وأسربة، والحيواناتُ ذواتُ أربعٍ سليمةٌ، في الخيمةِ تتلاصقُ أجسامُهُم السمراءُ وروحه، وخبزُهم اليابسُ ينغمسُ بسوائلٍ وخضارٍ وأعشاب وكتابٍ وأسئلة نارية.

يحضنُ الصبيَّ معمر ويراهُ يصغرُ ويتحدُ بالتلال.

يضعون بصماتهم على جلده، ويأخذُ هياكلَ أطفالِهم المدفونة في السراب لأزقته، وزملاؤه وُشموا بالطين والتراب والدماء والنصر الفاجع، والضابطُ الأنجليزي يدعوُهُ لشقتهِ ويرى الزجاجاتَ المبهرات السعيدات بإفتضاضهن والأعلامَ المنتصرة والصليبَ المعقوف المحطم والصليبَ المتألق في رقبةِ لويس، وناجي يشربُ متألماً ويبتسم ببلاهة، يشربُ بغزارةٍ كأنه يغرق، والضابطُ الغريبُ يقول عنه إنه بطلٌ عبرَ الصحراءَ وخرائط الألغام

وقبائل اللصوص والأسلاك الشائكة وعاد حياً، وصورتُهُ تألقتْ على الصفحةِ الأولى في الجريدةِ البريطانية ويظهرُ فيها بين رجالِ القبيلة والصبي معمر منفرجُ الفمِ والإبلُ عابرةٌ للتاريخ.

لكنه يعودُ للحاراتِ والأزقة والدروب كئيباً، يتسللُ لشعيراتِ نعيمة، يدققُ في ملامح الرجال الذين ربما مروا بين الخصلات، وفي الجيرانِ الذين ربما خانوا، يزور أخويه، مرةً في أعماق الريفِ ومرةً في أعماقِ الحارات، يركبُ الدبابةَ السحريةَ ويعبرُ النيلَ والشوارعَ المضاءة ويضعُ نجوماً كثيرة على كتفيه، ويأخذُ أولادَ القبيلةِ الذين يمشون بلا أرجل، معه، وأصحابَ الجلابيب الزاحفين بين شجيراتِ القطن أصابعهم محاصرة بين الشوك والحرير الأبيض، تظهرُ الأيدي الممزقة السمراء كخرائط الأرض.

(٣)

ما زالوا يزحفون نحو قلعته. يخرجون من حفرِهم وأزقتِهم المليئةِ العتمة، من مقاهيهم المضيئةِ المليئة بالدخان، يمشون فوق ورق الجرائد المنشورة للذبابِ والطعام، أصابعُهُم إمتلأتْ بحبرِها وكتبتُهُ على الحيطان والزمانِ الغريبِ العاهر.

حدثَ الإنفجارُ.

في فيلتهِ البكرِ المذهلة بعد الزمان العسير، يأتي أخوهُ يرقصُ من الفرح، كأنه هو الذي ركبَ الدبابةَ، وأقتحمَ الأسلاكَ التاريخية الشائكة!

إبراهيم كان معه دائماً، في نارِ القرية وألعابها والبحث عن آثارها والتغلغل في غيطانها، في السهراتِ النظيفة، وكان له طريقُهُ المغاير عنه!

يختفي في كفورٍ ومدن، ويأتي محملاً بزادٍ من الورق. أنعشَّ روحَه، ورأى دبابيسَ النورِ في الشوارع، والأسماءَ المبهرة القادمة من الشمال. دائمُ الذهابِ للمحلة الكبرى، وحين بدأَ الحديدُ يتوهجُ في المعسكرات أرتعشَّ وحدثهُ عن ميلادٍ جديد.

في أصابعهِ كانت الخريطةُ ولكنه لم يعرفها وذهبَ لآخرين.

من أنتَ يا جمال؟ مجرد بعوضة!

تعالْ معي، سأفتحُ فتحاً.

ماذا لديك؟ من يعرفك؟ من رآك تتكلم أمام حشد؟ رأسك فارغة من النظريات والأفكار والخطط!

لدي القوة والذكاء والسمو.

لكن إبراهيم يمشي لحشودٍ وأناس يحضرون له الاشتراكات والكتب المجانية ويزيحُ الغبارَ عن أصابعهم المثخنةِ بالكدماتِ والدماء.

يسمعُهُ يتكلمُ بينهم عن معادلاتٍ رياضية وهم يغفون.

وهارون المتروي عنه يراه في العيدين، أحتضنهُ مراراً ورأى النجومَ على البدلة تطيرُ في شم النسيم.

أخواي سيكونان معي. سيلتحقان بي، لكنهما لم يلتحقا، وأكفهر وجهاهما.

يا للهول، الغيرةُ هي من بعثتْ رأسَها من بين الحشائش الشقيقة السامة!

يحدقُ إبراهيم فيه مذهولاً:

أهذا أنت يا جمال؟ أليس هنا رجل آخر، أسطوري، أأنت نفسكَ الصامت القارئ، الراهب، تصيرُ فوق الحشود؟

كلا لستُ فوق الحشود.

بتواضعٍ رهيب أذهله، أطفأ ناراً غريبةً تتغلغلُ داخله، وجعله يتجمدُ فجأة، ويجلسُ مرتبكاً.

كنتَ لا تنبسُّ بحرف. أراك شمعةً وتتكلمُ بإشارات غريبة، سرك في تنور!

إبراهيم يتجمدُ ويتأمل.

من فراغِ التاريخ، من حقولِ القريةِ الراقدةِ على الورق والأعشاب والدود والنارجيلات والخبز، من الحوش الذي يترلُ عليه الندى وتغتسلُ به الأسَّرةُ وما تغتسلُ العيون، والترابُ يتحدُ بالعجين، والطيورُ بالرصاص، والفتيةُ بالحقول والخلايا والثكنات، والحَمامُ بالسماءِ والأنام، مشى وجهُ جمالٍ بين الجموعِ العادية، لا يفرقُهُ عن الملايين، ضائعٌ في الحشود، والبحثُ عن الأبِ وزيارةِ الأم، والفتى الهادئُ الخجولُ يصعدُ نسراً فوق السُورِ والعظام، كان كالترابِ فإذا به شهاب، الآن كيف سيتعاملُ معه؟ أحبهُ كثيراً، الآن سوف يختلطُ الحبُ بالبدلاتِ العسكرية وبالحرسِ والقصورِ المفتوحة لأولادِ الوجه القبلي.

هؤلاء الذين يُصَلونَّ يثورونّ أيضاً ويصعدون لمسرحِ التاريخ المبهر، وهم يتكلمون في الخلايا الغارقة في العتمةِ والشرارةُ ورقةٌ وفراشة!

لماذا لا تتكلم يا إبراهيم؟

مرتبكٌ، حائرٌ يا أخي!

ينهضُ مرة أخرى ويعانقه.

لم يعد جمال له، لم تعدْ شقتُهُ الصغيرةُ مأواهُ في لحظاتِ الحزن والشوق، لن يستطيعَ أن يأخذ عيالَهُ ببساطةٍ ويدخلون هذا البيتَ الواسع الجديد المحاطَ بالحراس والمزروع والمُرَاقب. حدثت هوةٌ جميلةٌ مخيفة!

إبراهيم يعودُ لزقاقه، هنا الدربُ الترابي، وعرباتُ الفول والبطاطس، والأمهاتُ العائداتُ من الشغل، والرجالُ الذين لا يفترقون عن الحصى الأثري وأعشابِ المقابر التاريخية، والآلاتِ الصدئة، كأنهم آلةُ عصيرِ القَصبِ وقد صاروا يُعصرونَّ فيها ويظهرونّ عظاماً وملحاً ونوراً.

لكن الناس تعرف إنه أخو جمال الرجل الذي صار مبهراً فجأة!

حشدٌ إقتحمَ عمارتهم. الترابيون مذهولون، ثمة زلزالٌ في نفوسهم وعظامهم، والكلامُ يُعرشُ شعراً، تهطلُ النجومُ على أكتافِ أهله، وجدوا لهم صلاتٍ بالصحابةِ والأئمة والمشايخ وأصحابِ الكرامات، أعداؤهُ قَبلوا رأسَهُ مراراً، أصحابُ الحوانيت تناسوا ديونَهُ الكثيفة، أصحابُ الخمارات إحتضنوه وإنهالت المقبلاتُ على طاولاتهِ المثخنةِ بالجراحِ والفواتير والصخبِ والكلام الذي قيل!

والرفاقُ إنتبَهوا إليه!

صارَ صعباً عليه أن يتحركَ في مساحاتِ الحشود، راح يطالعُ سيرتَهُ المغبرةَ الكثيفةَ بالمسامير والغبار والوعود، كلَ لحظةٍ يصرخُ: جمـــال أهـــذا أنت؟

يتحسسُّ يدَ زوجتهِ فاطمة ذاتِ العروقِ التي تصلُ للنهر والقـــواربِ والحقولِ البعيدة، التي تمشي كالسككِ المفتوحةِ بالنهارِ في الصعيد، يتذكرُ كلَ أمطارِها الغاسلةِ لغابته، كلَ صمتِها في حالاتِ رجوعهِ الكثيفة في آخر الليالي، صاخباً، مودعاً صحبَهُ أو صاحباته، تقارنُهُ بأخويه الناجحين، تضعُ مرايا أمامه وهي التي ترى الظلام، ويظهرُ أولادهما خارقين مصنوعين مـــن نار، كلُ كوكبٍ في مدار قاتل، وأجرامُهم تنهالُ عليهما من كـــل علـــوٍّ خرافي على جبالٍ من الورق البكر.

لاحظَ أهلُ الحي الشبهَ الرهيبَ بينه وبين أخيه جمال، لو أنه لـــبسَ بدلةً عسكرية لأختطفَ الحكم! أو صارَ بديلاً عنه أو له! وحين تمكنَ من شراءِ بدلةٍ بعد صيف العمر تقاطرَ عليه الناسُ في شارع قصر النيل مرحبين مزغردين!

حياةُ القائدِ الغيبي الغامضِ في الأفق تغلغلتْ إلى روحه.

كل هذه السنوات الطوال ماذا فعلَ في نفـــسه، غـــير أن يـــوزعَ المنشورات وينجبَ ويحرضَ وينهضُ للغَزل والنسيج فجراً وهو غمامٌ ويَغزلُ الخلايا وهي تمطر؟

كان يقول لتوأمه: أذهبْ للجامعة، أحصلْ على شهادة كبيرة، بعد ذلك أصدرْ الكتبَ وإخترقْ هذا المجتمعَ الصوان!

لكن جمالاً ينعزل وهو يقرأُ مجلدات العسكريين، ويخترقُ الثكنات، والمدرسة الحربية، ويعودُ من معاركٍ مخيفة حياً موشوماً بشوكِ الصحارى وسموم الحيات وذكريات البدو!

يتذكرُ حسدَهُ الذي مضَّ في نفسه، وجعلَهُ يلبسُ مثل أخيه ويمضي للفتاةِ الفلاحةِ المعجبة بجمال المؤدبِ ابن الناس، وتتطلع فيه بدهشة:

فيك شيء متغير!

ما بكِ، تعالي قربي!

حتى صوتك تغير.

وضمَها بقوة فصفعته!

يدبُ بين عائلةِ جمال الصغيرة يفتحُ ذراعيه كلما دخل عليه، ويغرقُهُ بالنكات وقفشات السكارى والعمال وأضواء المنشورات، وجمالٌ الرقيقُ الهادئ يزدادُ صلابةً وخشونة وقسوة، ذُهل حين وقفا على شاطئ وجاء كلبٌ واقترب منهما فرفع جمالٌ رجلَه وظهر حذاؤه ضخماً وضربَ رأسَ الكلب الذي نبح وتلوى مذعوراً باكياً!

ذُهل منه والحاراتُ تبكي وتترف، وتضعُ الشهداءَ المحتفلين في الشوارع، ولم تعد لديه دمعة.

شبعنا من البكاء والدماء، جاءَ زمنُ الخلاص!

أين ذهبَ ذلك الشابُ الرقيقُ الشفاف؟

وأقترب منه، تغلغلً في شعيراتٍ صغيرةٍ قرب معسكره وخيوطه التي ينسجها حول نعيمة، وقراءاته الغريبة، وإدمانه الصلاة، يتعبدُ في ذلك الهيكل الغرائبي، ويحولُ سطورَ القرآن لنسيجٍ كوني يغزلُ كلَ مدن وغابات العالم، يتكلمُ من خلال كتابِ الأموات الفرعوني ويذهلُ من جمعهِ بين المدن المهدمة وكلمات الرحمة، وأوراقُهُ هو كلها تحثمُ تحت أعوادِ الذرة، لكنه كان يخدعه، فيما كان يغزلُ بدلةً حديديةً ذاتَ مسامير للمجتمع.

أما هو فخيوطُ غزلهِ قوية أو واهية وكلها حارقة، كومةُ لحمٍ تمشي وراءه وتصيرُ شخصياتٍ غريبةً منتفخةً وبالوناتٍ تطيرُ قربَ الكواكب، وكلما إنفجرَّ واحدٌ منها سقطتْ على رأسهِ الحمم.

كلها تتجمعُ حوله كأنه مُخرجُ عرضٍ أو بابا نويل يوزعُ هدايا في القيظ، الأبُ الذي حملَ أطفالَهُ من الكَفر في باصٍ ممتلئ ومعهم أشياؤهم وأسكنهم في شقةٍ وصارَ يمضي من الفجر لعمله، غدا عمهم الآن هو أبوهم ومركز إهتمامهم، وغدوا منتفخين في فصولهم وشارعهم وصرخة(دا عمي!) تثقبُ نافوخه، ماذا فعلَ بنفسه؟ ما هو الآن؟ كان ينظرُ لعائلة جمال الصغيرة وقوقعته بدونيةٍ، هو الذي يعيشُ بين الحشود، تفتل الآلةُ خيوطَ دمهِ في النسيج العامي الأرضي، كلَ ليلة يمسكُ ميكروفون جماعته، تتفجر

ثرثراتٌ عاصفةٌ حتى إنتحار الليل فجراً، وتتساقطُ الشهبُ والبلاغاتُ فوق رؤوسهم، فيما كانت النجومُ تنحني فوق كتفي أخيه، الورقُ الناعمُ يتغلغل، والآلةُ الأخرى تنظمُ الحروفَ وتضربُهَا على صخور الواقع، والصخورُ لا ينبجسُ منها ماء، ولا الرؤوسَ تتفجرُ بالتضحية والحب، تقبضُ أصابعُهُ على سرابٍ مستمرٍ وخلٍ وقشور، تهتزُ زوجتُهُ فاطمة فرحاً وتدعو:(الشكر لله طاقة القَدر وإنفتحتْ!). هي التي عانتْ في رحلته الطويلة من الكفر لجحيم الزقاق، وراحت تغسلُ الشقةَ القذرة الهرمة، والدرجات الطويلة، والطوبُ الذي يتزحزح هدأّتْ ضجيجَهُ بأصابعها، هي التي تركبُ المواصلات لتدفعَ الفواتير وتأتي بالأغراضِ والأشياء وأخبار الضنك، هي التي ولدتْ ذلك الطابور من الكائناتِ الخرافية، وكلٌ له أجنحةٌ من شمعٍ يطيرُ نحو علبةِ دخان أو كبريت، وها هي شمسٌ تسطعُ في العائلة، تنبثقُ داخل الحوش الأسري القفر، فكيف لا تهتز فرحاً، وتهمسُّ كلَ لحظة: كلمْ أخاك!

كانا يختلطان بين الناس، يتبادلان مواقعهما بسهولة، وفي عتمةِ الغسق لا أحد يستطيع معرفة جمال أو إبراهيم. لكن يستحيل أن يذهب مصنعُ الغَزْل للقصر.

كان قربَ قميصه، ويكادُ أن يكونَ بين هدبهِ وأصابعه، كلما طلبَ شيئاً عصرَ جسدَهُ من أن أجل أن يكون له، في رحلاتهِ المستمرة من الكفر،

في بحثهِ عن مكان وزوجة وأثاث وأدوية كان جمال دائماً هناك. الأخُ المتفجرُ حيويةً وجسداً يضعُ مدخراتهِ في فخارةٍ يكسرُها حالما يرى خطوط جبين أخيه تتلوى حزناً. كومةُ اللحمِ والليالي الاستعراضيةُ والدخانُ أذلتهُ، جعلتْ توأمَهُ يَكبرهُ عقلاً ورحمة. كم من مرة دخل بيته وفي يده أشياء. لماذا حفظَ ميلادَ أبنائه وهو لا يتذكر متى تزوج نعيمة أو متى ظهرت منى! كيف سلمهُ ابنَه هشاماً آخر العنقود ليعيش في بيته بعض الوقت وأحتضنه وأحبه أكثر حتى من ولده!؟ هشام الحلم والضحية!

يقوم جمال من على السُفرةِ ويقول:

كُلْ أنت!

ويشبعُ من الأشياءِ ويهمس:

خذْ البدلة! لم تعدْ من مقاسي!

وهو يسخرُ منه :

- كيف لا وقد إمتلأتَ من خراف الجيش!

الآن يستحيلُ أن ينحني ويتقدمَ إليه ويقول أريد! أعطني أرضاً لأتنفسَ يا جمال! الدولةُ صارتْ في أهلي وأنا أعيشُ في الحارة الزنخة!

الناسُ تزحفُ على وجهِ الأرض إليه، الحشودُ تتغنى به، المذياعُ يهتزُّ مدوياً بذكره، السماءُ تنحني وتغدو شمسيةً في مترله، لكنه لم يفتحْ فمَهُ ليقول خذْ يا إبراهيم! عشْ أنت أيها الشقيق الذي خُنقتَ في الزقاق وتعبتَ من أجل أسرتك! عشْ يا حبيبي إبراهيم أيها المدفون حياً!

تتفجر المارشاتُ العسكرية، وتكاد الأرضُ كلها أن تكـــونَ علـــى مرمى حجرٍ من عروسِ النيل، لكنه ينهضُ في الفجر ويغتسلُ عن مطرٍ من الحشرات ولعابِ السكارى وخرافاتهم المحلقة قربَ عـــرش الله، ويـــصفعُ الشبورةَ الصباحيةَ ويفتحُ له درباً في أشباحِها الباردة، ويستعيرُ بعضَ الدفءِ من أنفاسِ العمال المتجمعين بإنتظارِ الباص وفي داخله، والضوءُ يكـــبرُ في الدربِ وفي روحه، وحين يجثمُ على آلتهِ يغزلُ الحبَ والدمَ والنار، يدقُ كلَ ضلع أعوج من أبنائه، يمسكُ كلَ رفة نحو الشمس الحارقة، وتتبعثرُ أجزاؤه، وتتكسرُ خطواته كل نهار، ليجثمَ في الليلِ على الزجاجاتِ الباردة والرغوةِ الطائرة نحو القمر، ويصيحُ قلبُهُ كلهُ هذا أخي جمال ناءً عني!

الآن تمتدُ فيلا جمال، تعرشُ، تمتدُ إلى النجوم والصحارى والمـــدن، ويدخلُ إليه، ويحضنه، ويأكلُ الحلوى ويشرب القهوة ثم تزدهر التحيـــاتُ ويخرجون للشارع الفسيح تحدقُ فيهم عيونُ العساكرِ المحايدةِ الجامدة!

في الدروب والباصاتِ تتساقطُ أحلامُهم، وجوهُهُم صلدة، فاطمـــة متخشبة، ولدهُ الأكبرُ فتحي يقترب منه ويهمسُّ في أذنه: أهو أخوك حقاً؟ أهذا عمي فعلاً؟ أم أنك تكذب علينا وهو من بلدياتك ومن كفرك المنسي الذائب في وهج الصعيد؟ لكن الشبه بينكما كبير!

مريم تضحك برعونة، إشتغلتْ بضعةَ شهور في المصنع، لكن لم تُطقْ العمل، شعرُهَا الأسودُ الكثيف تداخلَ والخيوط القطنية، تلمَهُ مراراً لكنـــه

يطيرُ ويتعالقُ مع أغصانِ العوسج، مع أحلامِ الليلِ وأضواءِ الكباريهـــات، كانت تسبحُ فوق مياهِ النهرِ الذهبية، يقودُها القاربُ النبوي العسكري إلى فرعون، والقاربُ يغرقُ والسمكُ النهري يسبحُ قربَ عينيهـــا الكـــبيرتين ويدخلُ فمَها الواسع المفتوح، وترى البدلاتَ العسكريةَ تمشي في الأعماق منفوخةً بالجنيهات والماء والهواء والأغصان. تطفو على طاولـــةِ الفطـــور، تُدخلُ في جسدِها الشُوكُ، وتضربُ باعةَ الحليب الصغار بالأرغفةِ المنتفخة بالتراب.

تتفجرُ الموسيقى في غرفتها، تهزُّ الجدرانَ وهي ترقصُ على أطـــرافِ أصابعِها، تمشي بجعةً محبوسةً في بركة. تقول:

– كلمْ أخاك، ليجعلني سكرتيرةً له، موظفة، ألا أستحق أن أكون وزيرة؟

أما أحمد فغارقٌ في كتبِه وورقه، فصنعَ له أجنحةً من رواياتٍ وأعمدةٍ وجداول، يحلقُ من الشباك طائراً نحو الأزقة والجامعةِ وإحتفالاتِ الـــشعرِ والنجوم والنهر، حين تفجرتْ بالوناتُ العسكرِ في الشوارع صرخَ به: ماذا كنتم تفعلون في الخلايا غيرَ الكلام والسَكر؟ وصارت الكتبُ أكثر ضخامةً وراحتْ تنزلُ على رؤوسِ العائلةِ بمصطلحاتٍ ثقيلة وبمطرٍ من اللغةِ المصابة بالإنيميا والاسهال، وكل أسبوع يبدل أحمد قواميسه، تتـــضخمُ اللحيـــةُ فجأة، ثم تُحلقُ ومعها الشارب، وتجيءُ كتبٌ غريبةٌ ولوحاتٌ فيها الأفيالُ ترعى العشبَ في السماء، ثم تكبرُ مسبحةُ الدراويش وتتساقطُ منها حبوبُ

البَركةِ والدخان الساحر، حتى عاد فتى بقميص وبنطال فقيريـــن فأغتنـــتْ الصحفُ من كلماته.

لكن كلَ شيء صار يدور حول جمال، وتتبخرُ الأشـــياءُ والبـــشرُ والأفلامُ والغناءُ والميادين والذكرياتُ والأهـــرامُ وأبوالهـــول والغيطـــان والسلاطين..

في منشورٍ أول فرح باللغةِ النارية الصادحة بحب العـــسكر، صـــار يوزعها وينفضُ حسدَ الرفاق، وفي منشور آخر هاجمَ الرفاقُ البدلاتَ البنية فبُهتْ للكلماتِ الغاضبة الناقدة لهم، صارت السطورُ تحفرُ الخنادقَ وتكوي اللحمَ، وظهرتْ العيونُ ثانيةً في الحانة وعلى ناصيةِ الـــشارع تحـــدقُ في القادمين إليه، والنازلين من تنوره!

صرخَ في خيال جمال:

لماذا، لماذا نفترق؟ أتذكرُ الكتبَ في الحقل، والحرائقَ الصغيرةَ المضيئة للناس في العتمة القديمة الواسعة؟

ويواصلُ العزفَ المرير:

ألم تكن صامتاً طوال عمرك؟ من إستطاع أن يعيدَ الحيـــاةَ للنـــاس غيرنا؟

وتكون الضربةُ القاضية:

ثم إشتغلتْ في العتمةِ طويلاً وغدرتْ بأخوتك!

لكن جمال قالَ بهدوء قاتل على المسرحِ شبه المعتم:

كانت بدايةُ المصيبة الخلية الأولى؛ أزحْ سعداً، والخليةُ الثالثــةُ أزحْ النحاس، ثم أحرقْ الطرابيش ولا تدعْ الطيورَ الحمرَ تخيمُ علــى الحــواري والحقول والعقول!

أي تفسير منحرفٍ هذا لتاريخنا؟!

دخل الشابُ الهادئُ اللطيفُ المعسكرات ثم خرجَ كائناً آخر!

(٤)

ليس لدى إبراهيم سوى نجوم الليل، يعودُ وأشجارُ الــدفلى تلقــي بأوراقِها الذابلةِ فوق عمره، يحتسي البيرةَ بزجاجاتِها الطويلة الباردة.

ظهرَ موسى من شجيرةِ العُلَّيق[٢]، أفزعَهُ بثوبهِ المعتم، وصرخَ فيه:

يا أخي كيف تظهرُ هكذا؟

القامةُ الشامخةُ وجراحُ الشوكِ والنورُ الطالعُ من البراري والخرافــة. العلبُ ساعدتُهُ وحولتْ النشوةَ للقضية.

موسى يستفردُ بخياله:

ألبسْ بدلةَ جمال، وأولاً عشّْ بين أهلهِ وصحبهِ، وأعرفْ كلَ صغيرة وكبيرة وذات يوم تكونُ مكانه! ماذا فعلَ من نبؤاتِ الأنبياء؟ لا شيء!

---

[٢] إشارة: العُلَّيْقُ نباتٌ معروفٌ يتعلَّقُ بالشجر ويَلْتَوي عليه .

ما هذا الهراء؟

أنت التالي، هكذا تقولُ الأبراجُ والحتمية!

الله يسمعُ منك!

جمال الحيةُ التي ستبلعُ كلَ الثعابين، فرعونُ الجديدُ يعطي الحلوى للأطفالِ ثم يقودُهم للمقابر حين يكبرون. سترى الصحارى مملوءةً بالمشردين! ونحن الغلابة الضائعين.

أخونا هو؟!

هو الذي ألقانا في البئر.

نعم كان المنتظر أن ينتشلنا منه.

دعْ هشاماً يسمعُ كلَ شيء.

لا تُدخلْ ابني الجميل في هذا المستنقع!

هي حربٌ يا أخي.

ومضى موسى يكلمُ الرفاقَ وينشرُ نبؤتَهُ المجنونة.

تدفقوا على إبراهيم، غيروا حانته، قِيدَ إلى مكانٍ واسع، بيانو يدقُ على رأسهِ مثل عامل نحاس، نساءٌ جميلات يُدخنَّ ويشربنَّ المنكرَ ويتكلمن برهافةٍ شعريةٍ كبيرة، يصرخُ موسى في البرية: هذا شعبي ما زالَ ضائعاً، يسكنُ في التراثِ والمقابر، تعالْ خذهم للمصانعِ والمتاحف يا ضابطَ العسف والانضباط!

يتأمل أخاه المجنونَ الساحر الممثل غيرُ المعترفِ به عائلياً، ويرى مشهدَهُ يتغير:

الجماعةُ تحيطُ به وتقدمُ له الزجاجات والمأكولات، ويتحدثون بهدوءٍ وحماس، يخافُ أن يطلبوا منه أن يغتالَ أخاه، خطتُهم أوسع، وأغنى بالتفاصيلِ الخبيثة، المكانُ يزدهرُ في آخر الليل، المدينةُ تَسرحُ في الرغوة:

- إقتربْ من أخيك، كنْ في الصف الأول، كنْ مستشاراً، كنْ مُدلكاً، كن رفيقَ صلاة، كنْ منافسه المهزومَ في الشطرنج، دعْ هشاماً يكبرُ في البيت، فلتتداخل الأسرتان، بحميميةٍ أكبر، لم تقمْ بجهدٍ في هذا التقارب، أنتَ في عمق شبرا وهو في الزمالك، الآن المسافةُ إتسعتْ، ليكن وجهك دائم الحضور، حتى في الإفطار لم لا؟ أعرفْ كلَ فرحةٍ ودمعة في الأسرة، ثم ثبْ في إنفجار التغيير!

- كنتُ كذلك!

لا تكفي المواعيدُ الأسبوعية.

سوف يُذهل. جمال مرهفُ الحس.

من قبيل المساعدة والتضحية، أرفضْ كلَ أماني أسرتكَ الصغيرة التافهة، فكرْ بأسرتك الكبرى.

كأنكم موسى!

دعكَ من الساحرِ الممثل.

قمْ يا شعبي سوف آخذكَ من وطنِ العبيد، سوف أحررك وأمشي بكَ إلى أرضِ الأحلام والشبع، سوف أضربُ البحرَ فينشق الفرعون، وتكونُ أرضُ الأحلامِ وتكونُ أمُ الدنيا تُرضعُ البشرَ علومَ الكون والعصائرَ والمياهَ السحرية.

يهتفون:

بدلاتٌ مماثلةٌ ثم تأخذُ التاجَ!

مكياجٌ من أخيك موسى وتصيرُ الساحرُ الأعظم!

لو أن هشاماً يغدو هو الوريث!

لكان زيتُنا في وعائنا!

الأصدقاءُ قَدموا نقوداً كثيرة فجأة، وضعوا الحقيبةَ على الطاولة فذُهل!

ماذا بكم؟ أنتم أجنٌّ من موسى! الناس كلها سوف تفسر أن مصدرَها هو أخي!

ليكن، سوف يزداد أصدقاؤنا.

أي أصدقاء يأتون من نقود وتظاهر بالقرب من .. لا!

أسرتك تتغير، ويكونون جديرين بعمهم.

هو لم يقدم لهم حتى دراجة هوائية!

هذا أفضل.

أفضل؟

سوف يعرف إنك مُعان وترتكزُ على قوة!

يا إلهي، أي حمقى! عموماً أشكركم، لم يقدمْ أحدٌ من أهلي شـــيئاً مثل هذا، لا أخ الدين ولا أخ العسكر، إنني أعتبرها دَيناً.

هنا أشجارُ الدفلى العملاقة، والشارعُ النظيف، والنهرُ يتنفسُ قريباً، وأصصُ النبتاتِ تتجلى والوردُ يحيّ العابرين، وهنـــا الباعـــةُ المحترمـــون، والصحفُ النظيفة، والمقاهي الزجاجية، والبار المُرَاقب، ويدخلُ البيتَ نافضاً الندى من على كتفيه، والأولادُ والبناتُ يهزون طبقاتَ الهواءِ المُحاصَّـــرة، وفاطمة تنتظره وتحضنه، وتشوش في أذنه سعيدة.

هذا هو العزُّ إذن، الصحو في العاشرة صباحاً، ومائدةٌ عامرةٌ بأطباق شتى، ذهبَ حصارُ الفول، والبيضُ يتكسرُ وتتطاير قشورُهُ في الهواء، وثمـــة بيانو يرتعشُ حباً منذ الظهيرة، والهاتفُ يحددُ مهماتَ العمال، ويتمُّ الغَزْلُ بالهواء، وتأخذُهُ سيارةُ الأجرةِ لفيلا الأخ، ويقرأُ له أخباراً هامة، ويكتـــبُ ملاحظاته، ويجثمُ في واجهةِ مكتبه، يشربُ الرشفةَ الأولى من فناجين قهوتهِ الكثيرة، يشمُّ الهواءَ متحسِّساً الجراثيمَ والغبار السام، يحضرُ الاجتماعـــات المشبوهة، يتحول لبديل فعلي، ويكادُ أن يموتَ برصاصة!

يصيحُ في الرفاق:

– هذه مهمة خطيرة ومخيفة جداً!

اثنانٌ في سهرة، أخوان يتراشقانِ بالكلمات، يكتشفُ إنه عامل بسيط، يداه صلبتان كحجرين، دماغُهُ سكنتْ طوالَ سنين، يقرأُ قليلاً وينامُ قرب فاطمة، ولا يستطيع أن يجثم في مكتب، وثللٌ من العساكر تتقدمُ وتأخذُ المكاتبَ الكبرى، وأوراقَ الجرائد، والقصورَ القديمة، وبناياتَ الخواجات في قلبِ المدينة، ويُحضرون عائلاتِهم من الكفور والقرى، وتخمدُ السيمفونياتُ التي كانت ترتجفُ صمتاً وصراخاً قرب عدلي باشا وتَخرسُ أفواهُ زجاجاتِ الشمبانيا والأوبرا وهو يهتزُ في تمثالهِ يوقفُ الدورانَ بدائرة تتفتحُ على الجهات الأصلية والفرعية.

الرفاقُ يتغلغلون، يكتبون، يتساءلون، ينقبون، يطبعون، ينشرون، والمناشير تصطكُ بالعظام.

يتطلعُ جمال للجرائد الملونةِ برعب.

– جمالٌ يقرأُ دبيبَ النملةِ الحمراءَ في قصبِ السكر المصري. يشعرُ بوخز. يقول له غاضباً:

لم تقرأْ طينَ الفراعنة. بياناتك مرسلةٌ من الخارج وعليها طوابعٌ أجنبية. لم تعرفْ هذه السكاكينَ من أين جاءت. لم تعرف إنها سوف تقطعُ لحمنا، تضعنا في قوالب ثلجية ونحن ملوك الصحارى، تصهرُ كلماتنا. تقتلُ أنبياءنا، وتبيدُ لغتنا، وتحولُ بقراتِنا الإلهيةَ لحَلبِ آلي.

يريهِ خرائطَ غريبةً من بلاد الثلوج:

– سربُكَ يتغلغلُ بين جنودي الفقراء. يهددونهم بأفيون البسطاء. كلمهم ليخرجوا من حقولي.

يمسكُ إبراهيمُ الكتبَ، يقطعُ الأوراقَ التي بقيتْ غير منفرجة، يرى الجثةَ في الميدان، والدودَ يخرجُ منها متجهاً للمسارح، يخرجُ من عيونِ الراقصاتِ والممثلين، ينتشرُ في خلايا الحالمين والنائمين والموظفين المنتفخين بالعطايا والهدايا، ثمة دودٌ مشترك، وكلُ القناديلِ التي وضعوها في الأزقةِ تكسرتْ، وهاهم الكبارُ وراءَ المكاتبِ وفي الجرائدِ، ينتظرون ساعةً ما يقفزون فوق العيون: فأحفرْ في السطور، أحفرْ في لغةِ الأزقةِ وآثارِ الأحذية والبصمات، وُضعتْ قبعاتٌ فوق رؤوسِ الأئمة، وجاءوا من الصحارى يعلموننا الأبجدية: يصرخُ جمال:

أنتم مجردُ مسوخٍ خارجية! ابتعدْ يا أخي عن هؤلاء. غداً لن تستطيعَ الدخولَ إلى مكتبك. جماعتك تغتابني. جماعتك تفرقُ بين الجندي والضابط في عسكري، تحرضُ المواطنَ ضد التاجر المسالم الطيب. تصادرُ الحَبَ والغنم والدجاج والدكاكين. تمنعُ الرزقَ الحلال.

صارَ جمال إعصاراً، توحدَ بالجموعِ الزاحفةِ مع القطارات، بالصور العملاقة التي غزتْ الميادين صار ضباباً بقربِ إعلاناتِ السجائر والمشروبات الروحية والغازية، دخلَ بقبعتهِ وإبتسامتهِ في كلِ بيتٍ وكوخ، إقتحمْ العششَ والغرز، والرؤوسُ منتعشةٌ بالشعاراتِ والحشيشِ، طارَ فوق المدن منطاداً هائلاً يمطرُ ورقاً ويُنزلُ حبوباً منومةً وأسربةً وأرغفة يابسة.

إنسحبْ هو إلى شقته، ومغزله، وثلته بعرقِها وبيرقها غير المُسكِّرة، وما زال أهلهُ يُحلقون، ومريم تنتظرُ الوظيفةَ والعريسَ وتسمعُ الموسيقى الراقصة، هذه الساحرةُ الجمالِ ترفضُ الخُطابَ واحداً بعد آخر؛ هذا عتالٌ وذاك سمكري والثري قبيح جداً وتاجر المخدرات ذو كرش هائل سوف يدهسُّ بطنَها، والرفيق ذو الأسرة العريقة والأملاك في الريف شيوعي تم إحتجازه للأسف.

وأحمد ينتقلُ من إتحادِ المدنيين إلى هيئة القرويين المعتدلين إلى جماعةِ الصلاتِ الأخويةِ القويمة، وفي كلِ مرةٍ يسجلُ وجوهاً، ويرسمُ الحشراتَ البشريةَ وهي تحلقُ حول المصابيح البشرية والإلهية والذهبية. يخفُّ ويصيرُ أقربَ لفراشة، لكن دراجته الهوائية يستبدلها بسيارة مستعملة، وبأقلام الرصاص الخارقة للتضاريس والشخوص، ويصبحُ وجهاً يكرسُ نفسَهُ بين الزحام، يلتقطُ الوجوهَ ويحفرُ فيها، يَستخرجُ شعيراتِها الدقيقةَ بين البلهارسيا والمدافن والحقول، يطرقُهَا بأناملهِ القوية، يسحبُ الشحوبَ للمقدمة، يُبرزُ الداخلَ المتواري المتألمَ الضائع، أو الصابرَ العاجز، أو المقاتل الذكي، أوالمهادنَ الوضيع، تغدو وجوهُهُ على الورقِ ملفتةً، مذهلةً، يعتزلُ ليلاً في الغرفةِ والورق يتطايرُ في عاصفة ترابية، لم يعدْ يحتاجُ حتى لدراجة، الشخوصُ ذاتُها تَحضرُ عزلتَهُ وقهوتَهُ وصباحَه وتسامر أشباحه.

فتحي الجندي ومدمن القهوة والنرد، من الوظيفةِ الرهيبة وتحرير اليمن حتى بضع زجاجات بيرة آخر الليل وربما حشيشة تختزلُ الوجودَ في

دخانٍ وبتفكير في مشروعِ القاتِ المذهل، بعد أن جرهُ جمـــالٌ لمغامراتـــه الصحراوية ليصير شهيداً حياً في المقاهي.

هشام آخر العنقود نبيٌّ في غيرِ زمانه، منذ طفولتهِ يـــوزعُ حلـــواه ونقودَهُ على الأولاد والبنات، يحملُ أوعيةَ اللبن، يوصلُ الجرائـــد، ينتظـــرُ طلبات أمه وحين كلَّ بصرُها كان عصاها وسطورها وقرآنهـــا وقِـــدرها وطبخها، كان يزهرُ في الحي فراشاتٍ وأسئلةً وأرغفةً وتحيـــاتٍ وإهـــداءَ كتبٍ، وكلُ الصر خاتِ والاحتجاجات التي تنغمرُ في أذنيه لا يـــسمعها، وأمه تشقُ جيوبَها: هل أنت غبي يا واد؟ وتعقدُ الندوات العائلية لبحـــثِ مشكلته، و لم يضعْهُ أحمد وجهاً له أبداً، وفتحي يجتمع به بشكل رهيـــب، لكنه يتسلف منه ثمن البيرة ولا يرجعه.

هشام يصيرُ ابناً لجمال، الهرم ينحني لولدٍ، والولد يزهـــر في البيـــت العسكري الهادئ، يخدمُ الأم ويقرأُ كتب مني، ويعود فجأة لبيتِ أبيه عندما طلبه وسحبه من روضة الحب التي كانت.

وقال أَبو حنيفة: العُلَّيق شجرٌ من شجرِ الشوكِ لا يعظم، وإِذا نَشِب فيه شيءٌ لم يكد يتخلَّص من كثرةِ شوكه، وشَوكُه حُجَز شِـــداد، قـــالَ: ولذلك سمِّي عُلَّيْقاً، قالَ: وزعموا أَنها الشجرةُ التي آنَسَ موسى، على نبينا وعليهِ الصلاة والسلام، فيها النارَ، وأَكثر منابتها الغِياضُ والأَشَبُ، موقـــعُ الباحثِ العربي.

(٥)

رأى جمالٌ أصابعَهُ تشقُ الجبل، وتنهمرُ المياهُ، ومن الزقاقِ الضيقِ والباعةِ الصغار راح يطيرُ في الفضاء قربَ السحب، يمسكُ جذورَ النهر ويحولُها عن صخورِ الطحالب، يقربُهَا من منازلِ الصيادين والخدمِ وعمالِ التراحيل.

يكسرُ أحجارَ الجبال ويضربُ بها العمالقةَ الطالعين من القبورِ والكهوفِ ويركضُ السحرةُ حولَهُ ويمسكون ساقيه الضخمتين المتشبثتين بتاجِ فرعون، يفضهم كورقِ الشجرِ نحو الزنزانات والفيافي، يتطلعُ للأزقةِ المزدحمةِ الخانقةِ فيجدها لم تتبدل، والفولُ هو نفسُهُ صغيرٌ صغيرٌ حتى كأنه لا يُرى، لكنه صامدٌ أبدي في الشوارع مع الدخانِ والبخار والذباب، يهجمُ جمالٌ على السحبِ والغبار والأموالِ وتعلو المداخنُ توزعُ الأرغفةَ على الجائعين، وتملأُ رئتيهِ رماداً فيحولُهَا لسجائرَ ثم غليوناً وتتغلغلُ في خريطةِ ظهره.

نزلَ في مطارٍ صحراوي تمتدُّ فيه السجاجيدُ الحمراءُ الثمينةُ حتى القصر، وانحنتْ له العباءاتُ وذبُحتْ الخراف، وتعالت روائحُ الشواء وجاءت الأصنافُ الفاخرةُ من الويسكي الحلال، ورأى نفسَهُ يصيرُ خليفةً يمشي بين الردهات، المضاءةِ بالفوانيسِ الملونة، والجواري واقفاتٌ بإنتظاره، ومحمود حارسُهُ مذهولٌ من جمال الأعرابيات، كلما نزعَ حجابَ واحدةٍ

أهتزَّ من جمال الوجه، وأشار لحسناء بيضاء آخاذة ذات جسد مثير، ودخل عليها، وتحمم في مائها، وكانت غدائرُهُا خيمةً بدويةً مليئة بالزنوج والعبيد، ويعودُ جمالٌ بالطائرة متصوفاً، كانت وجوهُ الأمراءِ تبتسم، ويرى حقولَ الغاز تحترقُ وأعمدة الدخان تكّونُ العقالات والعباءات والخرافات والخيامُ الشتويةُ ذواتُ الأريلاتِ الممتدةِ للنجوم والأقمار الصناعية، وقربها سيارات المرسيدس وحظائر الغنم التي تضجُ بالبكاء.

يقول لمحمود: سوف يغلبنا هؤلاء البدو.

أخوه هارون هنا، ذلك المجرمُ الهارب، يحلمُ بأن يعيدَ طيورَ الأبابيل والوسواسَ الخناسَ الذي في عقول الناسِ لمرايا الشمسِ ويغرقُ حتشبسوت في النهرِ ويحرقُ مراكبَ النيل، ويضعُ الأحجبةَ والحجابَ والتمائمَ على شَعرِ وعيونِ رمسيس.

يقولُ له الأميرُ:

بودي يا جمال لو تتصالح مع أخيك، والله إنه ذو عقل راجح وضمير يقظ.

يا أخي سلمان هو مواطنٌ هربَ من حكم العدالة.

القلوبُ تتصافى والأخوة يعودون لبعض.

ماذا يفعلون بكل هذا الزيت؟ يحاصرونه وهو في مستنقع المياه والصحراء، النبي الذي شقَ الظلامَ وأمسكَ عصا النهر وضربَ الجفافَ، ظهرتْ قرى من بين الرمال، لم يسرْ بقبائلهِ في التيه، أيقظها منذ الفجر،

ونفخَ في الصْورِ، وضربَ الطبول، وعزفَ المارشات، ومشى الشبابُ طوابير في الشوارع يغنون بشجاعة، وإقتحمتْ النفاثاتُ عقدَ الهواءِ والغرور، وصحا الأمواتُ في وادي الملوك وتحولوا لعمالٍ يَحملون الطوبَ للسدود.

نزلَ من السحابةِ الممطرةِ في المطار تستقبلهُ حشودٌ ومظلاتُها من الورق والحب.

ثم سار ليخطب، الحشدُ لا يبين له آخر، جمهورُ العمالِ أُعطي إجازة، الطلبةُ ملأوا الساحة بالهتاف. قُبض على النسوة المومسات في الشقق فتشققتْ حناجرهن بين الحشود. المعترفون والمسحوقون في الزنزانات تمكجيتْ وجوهُهُم وظهروا فرحين سعداء بالزعيم.

هو سحابةٌ نزلتْ من السماء، تحملها عصافيرٌ ونجومٌ نحاسيةٌ على الأكتاف للهتاف، لا ورقَ لديه بل أرقاً لأجلِ هذه الملايين المدفونةِ في الرمالِ والحصى، يتدفقُ، يلعنُ الأباليسَ الذين خطفوا الزيتَ للصحراء، والملوكَ الخونةَ الذين يحولون الفضةَ لأحجارِ قمار، وخيام، ويجذبُ كلَ الخريطة من المحيط للبحر بسواعدهِ المفتولة، يضربُ الأقزامَ بقبضاتهِ القوية يدخلُهم في الغيران والكهوفِ وغرفِ الانعاش والغابات السوداء، ويركضُ نحوه الضباط ذوو النجوم والأقمار والشموس على أكتافهم يسحلون في طرقِهم العمياء المارةَ والخرائطَ والتيجان والحدودَ وتَدَخلُ الدبابيسُ

والأشواكُ الحديدية في أقدامهم وهم يصرخون من النشوة والآلام والأنـــام وكثرة النوم.

تتدفق الأغاني في كل الحارات المنحنية نحو الأرض، وداخل الهياكل العظمية المنهوشة من حيتان البر، فيتمدد الوطن.

(٦)

هل كان يمكن أن يتخيلَ هارونٌ نفسَهُ في هذه البداوة الشاسعة، لم يرَ خياماً ولكنها البيوت المغلقة كالخيام، والنساء المتواريات وراء الحجب والجدران، وليس ثمة سوى الرجالِ بملابسِهم البيضاء وغترهم الحمراء كزيٍّ موحـــدٍ لطيور غريبة؟

أين الحشودُ والمقاهي السامرةُ حتى الفجر وحـــي الحـــسين الملـــيء بالبهجة والمناخ الروحي العطر؟ كان يمكن الآن أن يجلسَ في باص ليهتـــزَ ويدندنَ شعراً في سره ومن ثم يجثم مع أصحابه ليتسامروا نقداً وفكراً.

من يقرأُ مخطوطَهُ؟ من يفرقُ بين الشعر والنقد والرموز الغـــائرة وراء اللفظِ القرآني، هذا هو قاعد بين جدران الشقة الضيقة، لا سؤالَ عنه، ولا قطعةَ موسيقى سامية.

سوف يختنقُ هنا، لولا زوجته، لتيبس. الحشودُ في المسجد لا تلـــبي حاجته، الأجسادُ الحديديةُ لا تشفُّ عن نور، عبادةٌ برانيةٌ آلية، ثم أكلٌ لا

يتوقف، أكان هروبُهُ نجاةً أم إنتحاراً؟ هل يدعُ أخاه العاصي جمالَ الحاقدَ يقتله؟

صواني الأرزِ الضخمةِ والخراف المذبوحة تكفي لشعبٍ بأسرهِ ثم تَصنعُ نوماً وكوابيس في الخيالات والأعضاء المنفلتة والأسرة المتحركة.

يسلمُ الجريدةَ عصارةَ روحهِ والمسئولُ يحلُّ الكلماتَ المتقاطعة، ويراهنُّ على المصارعة، والكتابُ العاملون يثرثرون ويشربون(الشاهي) ويدخنون، ويدعونه لسهرة تحت أطباق الأرض، تحت الرمال الحارقة، يدخلُ مخبأً علاء الدين ويرى الفانوسَ السحري تظهرُ منه نسوةٌ ذواتُ عيونٍ واسعةٍ يزحن النقابَ وتظهر مفاتنهن، وتنطلقُ السجائرُ المخدِّرة، وتنقضُ أعضاؤهُ عليه، والأجسادُ المليئة باللحم والشحم تحاصره، وترقص النسوة، ويظهر عريهن الرهيب، وتُفتح زجاجاتٌ مخيفة!

ينهضُ مفزوعاً، يصطدمُ بالجدران، الأجسامُ الجميلةُ تأسره، والضحكُ الداعرُ والفحيحُ يطردانه، ويكاد يتقيأُ على الرمل الصحراوي المتغلغلِ بين أحذيةٍ وأصابع المدينة الطويلة العظمية، ويسقطُ رأسُهُ قربَ زوجته عائشة، ويُذهل من جسمها البقري الذي تحملهُ سنوات طويلة، أبوه كان يجلدُهُ عندما غاص في البندر المشبوه، الآن الحلال بعيد، مثل تلك الأجساد الآخاذة يهفو إليها كصقرٍ ضائع في البرية، وتتقلبُ عائشة نحوه، وبطنها ذو الموجات الباردة يأخذهُ في قيعانه وأمواجه ورياحهِ فيضطرب ويختنق.

ناولهُ المسئولُ أوراقَه عائدةً إليه، الصفحات المنمنة بالسطورِ الدقيقةِ وبحركاتِ الأعرابِ الصغيرة المتغلغلةِ بين أجسام الحروف والكلمات المتمردة، وكان وجهُهُ كقوس قزح رملي، لا يعد بمطر وسحب، يحلُ العقادَ وأفكارَهُ وشعرَهُ اليابس، وفي الجريدةِ أسئلةٌ عن اللحم المستورد في العلب وهي قضيةٌ خطيرةٌ تمتد في صفحات، والثلاجات كثيرة تتساقط من السماء مطراً من دجاج ولحم خترير مغشوش ومقدمٍ في سلطاتِ التونة وأيدي أهلِ الذمةِ الغرباء يقدمونها على الموائد، والحشودُ تأكلُ في الخيام وتغسلُ يدَها بماء الغواري وتنظفها في الثياب واللحى والفوط النادرة، ويبحثُ عن وظيفة، مدرسٌ يعجزُ عن ضبط أولاد البدو المشاكسين، يُحضرون الإبلَ في حوش المدرسة، والوجوه المليئة باللحى تطالعُ وجهَه الحليقَ بدهشة، ويدعوه أصحابه للطوابق السفلى من الخيام الأسمنتية، ويكاد يسمعُ الطبولَ والتخت يأخذه لأعماق شارع عماد الدين، فيجلس مع ثلة في مقهى يسحبون خيوطَ الشاي الطويلة من الهندِ حتى بكائيات أمريء القيس عند أطلالِ أم كلثوم، وكلُ جسمهِ يصيرُ نملاً يسيرُ نحو الزجاجات وأفخاذ النسوة المهتزة بالخلاخيل، وتخترقُ درسَهُ المملَ المليء بشغبِ الفتية صيحةُ المدير يدعوه لأمر هام، طلبهُ الأميرُ سلمان لتعليم ابنه وابنته، في غرفةٍ مغلقة عن البادية الثكلى، يُؤخذ بجمال الابن والابنة، ويرى المنهج يمشي على قوافل البدو الأبدية، والولد مثل الصَبية، والدروسُ الخصوصية تغرقهُ

بالعطايا، ويشمُ في الفتى رائحةَ الأنوثة، ويشمُ في الفتاة رائحةَ الفحولة، والجارة الخاطفة الملامح، الضائعة اللغة، ذات الجسد المعجز تسلبُ لبَه، ويقول لزوجتهِ إنه سوف يتزوجُ عليها، وشرعُ الله سوف يجنبهُ الفاحشةَ، فلا يكادُ وجهُ الفتى يفارقهُ، وجسدُهُ الفاتنُ الزبدي موجٌ آخر شرير يخطفهُ في الليالي تحت اللحاف وهو بعدُ لم ينهِ سورةَ البقرةِ تحليلاً، وعائشة تصرخُ مولولةً تقول بأنها سوف تعودُ لولدها في القرية، وتلعنُ السنين التي ضحت بشبابها وجمالها من أجله، وشحمُها موجٌ يهتز ويختلط ببحرٍ من الدموع، لكن زينبَ البدوية تأخذهُ بين أحضانها وساقيها وتطيحُ بكلِ شياطينهِ من الأنس والجان، ويقنعُ أبناءه بمسلكه، ويقبضُ على فتنِ الأولاد المشاغبين في المدرسة بقوة فيحفظون السورَ، ويذهب لمسئول الجريدة الذي يرحبُ به مفتوح الساعدين مقدماً له الشاهي الأحمر الذي يقطرُ نوماً، ويدفعُ بمقالتهِ عن ابنِ تيمية ودوره للمطبعة، وترتجفُ السطورُ وتتحول الطعوسُ لبيت قديم مفتوح لرب السماء، وزينب لخيمة، مغطاة بالأسود، وتظهرُ السلالةُ الرسوليةُ بأسماء المصطفى والصحابة عثمان ومحمد وعلي ومعاوية، والمراوحُ اليدوية المصنوعة من الجريد والسعف ولا تكاد تحركُ الهواءَ وتتخصص في صيدِ الذباب والناموس الكثيف تصير(Condition) يتدفق بهفهفةِ الثلجِ في أتون الصحراء العربية، ويجدُ من الضرورةِ تأليفَ قاموس يعربُ أسماءَ المبتكرات الحديثة ويصدر كتيبات عن الوضوء والصلاة وتاريخ الحج

وأركانه والصدقة والزكاة، حتى صارت لحيتُهُ كثيفةً والدائرةُ السوداءُ على جبهته علامةً لا تَخفى على الأقمارِ الصناعية المعادية.

أحاط به أبناؤه مذهولين من زواجه بامرأة تصغره سنوات كثيرة، تكلموا بأدب وعجب، وبينوا إخلاص أمهم الطويل وتعبها معه، ومجيئها للغربة، فكيف تعودُ إلى مصر ثانية؟ وكيف تعيشُ في ذات البيت الذي حوله أخوهم المارقُ حسن إلى متحفٍ للمنكرات؟ إستقبلَ بلطفٍ إنتقاداتهم، وبين لهم علتَهم نفسها، والضواري التي تنهشهم معه في الصحراء المليئة بالذكور والجدران والسأم والمحطة الوحيدة التي لا تعرضُ سوى قافلة الزيت وأفلام الأسود والأبيض التي رأوها مراراً ومحذوفة منها مشاهد مخلة كثيرة للأسف، وكيف أن النساءَ طيوفٌ أشبه بالسراب، فراحوا يستفيدون من كلامه ويصادقون بصبرٍ الرجالَ وينفذون إلى بيوتهم ويلمحون أشباحاً من النساء، ويحصلون على بسماتٍ ونظراتٍ وأرقام هواتف وجلسات في الظلال والظلام، ويفتحون متاجرَ للدخان والنقود والسلع ويُزفون في أعراسٍ بهيجةٍ ينفصلُ فيها الرجالُ عن النساء يأكلون الخرافَ الشهية ويرقصون صفوفاً تقول كلاماً بدوياً لا يُفهمهُ إلا ربُ العزةِ والجلالةِ ويطلقون البارودَ ويكونون البيوتَ والقبائل الجديدة ويلبسون البشوت ويقبلون الأنوف ويصحرون اللهجةَ النيلية.

وتصبر الأمُ في دار شرحة، وتركضُ من عرس إلى عرس، وتحضنُ الأحفاد، وتعلم الزوجات السبوعات وتمزقُ الأقماطَ وتلقي بالأطفال في الهواء والرمل والشمس، حتى تعبت وشاخت كثيراً ورحلت.

كل أبنائه ساروا على الدرب المستقيم سوى عثمان أكبرهم الذي لاصقه في بدء المنفى الصعب، وغاص في شبه الجزيرة مقاولاً وصعد بسرعة مخيفة، غدا ذا مسحةٍ دينية وباطن لعوب.

حين يعودون لمصر تستقبلهم العيونُ النارية، والأكفُ الحامية، والغرفُ الضيقة، ثم تتبعهم السيارات، وهم يصعدون للعمارات القديمة الهرمة، ويعودون لأترابهم ويتذكرون لهجتهم.

لكن الإخوان المُعذبين في حواري القاهرة المتطايرين شعاعاً ونـاراً، المدفونين أحياءً في رمال الصحارى، الهاربين في السيارات العسكرية العتيقة ولوريات المزابل، يحتاجون لجوازاتِ سفرٍ مزورة وتذاكر في البواخر وشققاً، وأيدي الأمراءِ صلدة، وآذانُهم مرهفةٌ تلتقطُ كلَ نأمة، وأي صيحاتِ غرابٍ ضائعٍ في البرية، وذبذبةَ العصفورِ، وكلمةُ الإخوان تهتزُ في أسلاكِ البرق عائدةً للقوافل القديمة ورفاق ابن سعود وحروب الشمال وحائل المتحولة لمقبرة، وتهجمُ الشرطةُ على رسائله وكتيباته وشعيراتِ لحيته وتتأكد إنها طبيعية، يسألهُ الضابط: أي إخوان؟ كل أولئك سحلوا ذابت عظامهم في براري الجزيرة، ينتهي سوء الفهم بعشاء عمل باذخ في قصر الأمير

سلمان، تلميذه النجيب الوسيم الذي لا يخرج الشَعرُ في لحيته إلا بصعوبة جمة وكشط الموس للحمه، ويتدفق الشِعرُ من فمه حنيناً للنساء وعطـــوراً للشباب، ولا يستطيع أن يذهب لخيمته في العراء حيث السيارات الفخمة الغريبة تخدشُ ذكريات القبائل وحربَ داحس والغبراء.

يلاحظ ثللَ الإخوانَ تهربُ وتتفجر في شبكة جمال التي إصـــطادت كل العصافير الصغيرة المزقزقة في بستان مصر الأصفر ويـــسأل الله العـــون والنصر في مقبل الأيام.

(٧)

مريم تحومُ قربَ العرش وتسقطُ على التراب.

إختنقتْ في الشقق المتسعة غيرِ الطائرة نحو قممِ الأهرامات الباذخة في السماء، حيث أبو الهول يتكلمُ أهوالاً وإختطافاتٍ لأبيها وأخيها الـــصغير، وأخوها الكبير يذهب لليمن ويدمنُ القاتَ وينسى البيرة.

بين ليلةِ ثورةٍ وكابوسِها وجدتْ نفسَها مع أمِها وأخيها أحمـــد في الشقةِ المثقلة بالفواتير والنمل الأسطوري، وهي التي إغتسلتْ بحـــبرٍ آخـــر ساعة والمصور كل أسبوع، ولم تحتج لأقلامٍ كي توقعَ على محاضر إستلام الفواتير والانذارات والرسائل المسجلة، أمُها فقدتْ بصرَها كلياً، كانـــت ترى أشعةً وخيوطاً من نورٍ ثم غرقتْ في العتمة، ربما لـــسقوطِها في دورة المياه، ربما لنشرها الغسيل على سطح العمارة، ربما لبكائها الطويل.

في الليالي القائظة، ونورُ القمرِ يُقبلُ ريقَ المدينةِ الخلابة، جلستْ ودارتْ وغنتْ بين ثلةِ الشباب المذهولة بصوتِها وإستدارة مؤخرتِها ورحابة صدرها، وهي تتعجبُ من تحول الرجال لتيوسٍ بسرعةٍ شديدة، إمتدتْ خيوطُهَا للهواتف وشركات الأفلام ودور السينما، بعد أن تعبتْ في مراكز البوليس والسجون تسألُ عن أبيها وأخيها، وتُذهل أن عمها لا يجدُ وقتاً لمقابلتها.

حين تبكي في حضن زوجتهِ نعيمة تجدُ ثلةَ النساء الرقيقة النائية عن شوكِ الرجال.

تجثمُ قرب تلك البناية العملاقة الكثيفة الحراس كأنها خلايا نحل ضارية، وكلما ظهرت سيارةٌ سوداء طويلة جَرتْ نحوها عسى أن ترى عمَها، وتخبطُ الزجاجَ، وتمتد لها أيدي العسكر، حتى إنفرج الزجاجُ ذات ظهيرة من ظهائر يوليو المحتفلة المختنقة بالأغاني والنار، وأخذها ضابطٌ في معيته، وحدقَ فيها بإعجاب، ورأتْ الأكتافَ المليئةَ بنجوم الفضة الزائفة، والأجسامَ الرياضية الشبابية كأنها حقولٌ من الفحولة، والزجاجات تتفجر، والصبايا يمشين تحت الأذرع الحانية ويدخلن الشققَ السرية والشركات والمخادع والخدع السينمائية ويتزوجنَّ رجالاً آخرين ويتألقن في الشاشات والحانات والمراقص ويذبلنَّ على الأسرة.

الضابطُ سامي يحيلها لحوريةِ بركٍ زرقاء حيث تمتد الخضرةُ المتوهجةُ بالنور، تسبحُ في نظافة، تلبسُ بنطلونات جيتر وقمصاناً ورديـــة آخـــاذةً مشجرة بقطن ناعم، تكاد تغرق، الـــضباط يحيطـــون بحـــواف البركـــة ويضحكون.

تعودُ عاريةً للحارة، تسمعُ ضربَ المطارق للنحاس والحديد، تـــرى كواتَ الفحامين الأشباح العمالقةِ الطالعين من التنور، قرأتْ الورقَ الذي يوزعهُ أبوها وهي طفلة تتلعثم بمصطلحاتٍ غريبة، راحت تصنفُ النـــاسَ حسب لغاتِ أصابعهم، تقرأُ شفراتَ الطبقاتِ في ألـــوانِهم وكلمـــاتِهم، وأبوها يأخذُها لاجتماعاتٍ متوهجة، وللرجالِ المكونين من عظامٍ صـــلبةٍ ولنسوةٍ قليلات متوهجات حاسراتٍ تشعُ عيونهن بفسفورِ الصراعِ بـــين الظلمةِ والضوء، وبطغيانِ الذكورةِ على الأنوثة، يحتضنها ويرضعنها حليبَ الرجولةِ المر، لتلبسَ الجيترَ المتفتقَ المرقعَ من قطع الأخوة، ويتوهجُ جسدُها وصوتُها فتتروي وترى الدمَ يسيرُ نحو الشهوةِ والولادةِ والحياة والموت، ترى الشبابَ المفتولين وتريد أن تضمَهم لجسمِها المـــرتعشِ شـــهوةً فتـــضمُهم للخلايا الهامسةِ وسط الزقاق، ويحيها العمالُ في مصنع الغَزْل وليس الغَزَل، يقطعون أصابعَها لو نزّتْ بدمِ أحدهم، يتحولون لمردةٍ ووحوشٍ في النـــهار وحمائمَ تطيرُ في الليلِ نحو الأَسرةِ والبيرةِ والخمرةِ والبودرة المخدرةِ وبودرةِ الخدودِ الطاهرة والفاجرة والسهرة العامرة.

بِركةُ سامي عرّتْ أنوثَتَها، كشفتْ مؤخرتَها الفخمة، وجنونَ الضباطِ وهم يلاحقونها في الماءِ وتتحولُ إلى منطادٍ أو بالونة كبرى في سماء القاهرة تهتزُّ مدوخةً الرجال السئمين من زوجاتِهم ذوات المؤخراتِ الفولية الزيتية الهائلة، تعودُ طاهرةً وملابسُها كلُها عليها، وتجثمُّ على سريرِها وهي تنتفضُ وقد ملأَ الضباطُ البركةَ بالحيوانات المنوية، يحضنها كلٌ واحدٌ منهم في الحلم وهي بعدُ لم تقذفْ روحَها، تلقي بغضبٍ بنطلونات الأخوة وروائحهم ولحية أحمد المفاجئة، وكتبَ هشام الحماسية، تلبسُ بدلةَ رقصٍ وتهتز في الغرفة وأمها تقترب لتسمع الضجة الغريبة؛(أفي بيتنا رقص؟!)، تشاهدُ عريَّها الذي يتزُّ بالحميمية والقوة والرغوة والانفجارات الصغيرة التي تطفحُ على جسدها على شكلِ زهراتٍ وأقحوانات ورسومات.

تجلسُ مع عشرات الفتيات الصاخبات بلغاتِهن الوضيعة الثقيلة، وبحركاتِ أجسادهن العامرة بالشحم، وتضحكُ في سرها من الثورةِ التي إستحالت لتسليةٍ ورقصٍ وأرجوازات ومطاردات بين الحرامية والعصابات في محلات الخضار والطعمية، وهواتف سامي تغلي قرب قلبها وثديها، ويهتفُ: تعالي للبِركة، ويجيءُ دورُها للرقص والغناء والأداء السقيم ولمخرج المنوعات الرديء، فهتزُّ المسرحَ وتتطاير البناتُ كوريقاتٍ وقصاصات جريدة عربية صحراوية ثقيلة في مصنعِ ورقٍ مصري عطشان، وينبطحُ المخرجُ على الخشبة لكي تمر نحو الضوء والعيون وآلات التصوير التي تدور

بأصوات فرحة معدنية صاخبة، تمشي فوق صلعته وعلى صدور منتفخة بحمالاتِ ذكورية تخشى على بنطلوناتها من الفتنة، وتخترقُ الصفوفَ وتحملُ مظلةً شمسيةً فوق مسرحٍ ماطرٍ بالنقود والمكر والأغاني والرقصات والنكات السقيمة السخيفة التي تضحك الملايين العاطلة من العمل والفرح والسلامة.

لا تتوقفُ المكالماتُ، وتتوهجُ الأشرطةُ والأسطواناتُ والحفلاتُ والسيارات، ويتحولُ الشارعُ إلى صخب، وهشام يبكي لأجلها في زنزانةِ الذاكرة، وأحمد يتفجرُ حنقاً عليها، ويحاول الاتصالَ بالأب والعم والإله وحتشبسوت بلا جدوى، لا أحدَ يردُ عليه، ويمشي في نومه، ويحملُ هراوةً ضخمةً يضربُ بها الناموس، يمزقُ بدلةَ الرقص، يمضغُ أشرطةَ العهرَ الغنائي، والأمُ بينهما تمنعُ الاشتباك، ولحيته تزداد إتساعاً مهذباً في وجهه، ثم تختفي، وتتمكن لوحاتُ الوجوهِ من زيادةِ راتبهِ بشكلٍ مثير، حتى راح يتغاضى عن بدلاتِ الرقص المتكاثرة، ويقدمُ نصائحَ ثقافيةً ويقرأُ الفيلمَ الأولَ الذي سوف تمثلهُ ويشطب ويضع عبارات ضاحكة جعلت المخرج يهتز فرحاً ويحضرُ للشقة التي غدتْ كتزاً فنياً وطنياً.

(٨)

يحترقُ إبراهيم مفكراً؛ ليس هذا هو أخوه، لم تنجبهم أمٌ واحدةٌ وشمُ الأرضِ وخضرتُها مرسومةٌ في جبينها، ليس هما من الأب النوبي القادمِ من

البراري المجهولة مع سربٍ من الإبلِ المتكلمِ، الذي عبرَ النـــهرَ في جماعتـــهِ الضاريةِ الأسنانِ تأكلُ الحقولَ، يمشون في بخارِ الماءِ واللهبِ ولمعِ السيوفِ يطيرونَ فوق وهجِ الصحراءِ.

وحينَ تعبَ الربُ من صنعِ العالمِ الناقص وراح طينُهُ يتساقطُ شاوياً القرى، جثمَّ الأبُ على جدارِ البيتِ العتيق وطلبَ القَربَ من الفيضان.

الرجلُ الكهلُ الذي خرجَ من البيت عليه عباءةٌ من فراشاتٍ وعَرقُ الغيطِ ووهجُ النيلِ ضمَّ الرجلَ الغريب وأسكنهُ داره، وضـــجتْ القـــرى بالعرس، وفي كلِ حملةٍ للمرأة تنجبُ توأماً، هارون وموسى الأولان، الأولُ نصٌ والثاني لصٌ أُبعد عن الدار، فيما إزدهرتْ الخرافُ في الحقولِ والأرضِ وراحتْ تزاحمُ البشرَ والطميَّ المتكاثر.

ثم إبراهيمُ وجمالٌ الأولُ سرابٌ والثاني قيامةُ عذابٍ، تلاصقا بقوة ثم إنفصلا بحدة. تبادلا الأشياء والملابسَ والقرآين حـــتى جـــاءتْ الكتـــبُ وفرقتهما.

هو جمال أخوه التوأم، كلما سقطَ معفراً دامياً حمله، وكلما ضـــربهُ الأولادُ إخترقَ صفوفَهم المذعورة، وغرقَ مراراً وحمل الدودَ للقرية والجلود والأمعاء، وهو ينظفهُ ويعلمه ويقول بأنه سيكون كارثـــةً علـــى الحقـــل، وينهضُ منذ الفجر وهو ينامُ للظهيرة، وهو يدخلُ رأسَه في الأعواد والفحم المتوهج وجمال يتربع ويأكل، وأخواه هارون وموســـى ذابـــا في القـــرى

والصحراء والمهمات الغامضة والتجارة والنبؤات، ضربهما هارون بعصاه الغليظة، وبصقَ في وجهيهما، وبنى بيتاً دخلاه بخوف. أما موسى فذاب في السجون والأسواق والحارات والمصانع يتنبأُ ويُعلمُ ويعملُ ويدخل المقابرَ ويطير في السماوات.

حتى تعفرت يدا إبراهيم بالحصى وذوّبتْ الصخورَ وطلعَ منها زهرٌ وحروف، وأخذهُ الدخانُ للمصانع، وأحضرَ له البدلات والكتبَ والحقائبَ والطيور، والأمُ تحضنه وتحبه وتزغرد لأصابعه الخضراء التي فجرّتْ شلالاً من الدفء والماء، ثم تركوه في باصِ عائلته الصغير الضائع في المدن، أبوه يحضرُ كلَ سنة ثم ذاب في الغموض، رحلَ مثلما جاء، والأم ركضتْ إليه وهو في معزلِ الصحراء، وجمال يكبرُ في بدلاته العسكريةِ الدقيقةِ الحوافِ كالسيوفِ، يتمددُ حتى السقف العرشِ والآيات الهادئة على الحيطان، يتجمد، لا يرتعش لمرآه، لا يحضنه، غدا مثل صخرة قذفها الفيضانُ على رأسه.

تمر المناسباتُ ولا يراه، تحدثُ الجنازاتُ فيكون وميضاً بلا دموع، وحين قفزَ للمصفحةِ وزلزلَ الشوارع لم يعرفه، لم يشعرْ ببركانٍ يتفجرُ داخله، بدتْ له العاصفة الحديدية ككابوس، والعاصمة كناموس، وإنهارتْ صحابةُ البيرةِ والشعاراتِ، فَقَدوا أقنعتَهم ووجوهَهم ولغاتهم، لم يعرفوا العودةَ لمنازلِهم وعشيقاتِهم وصحفهم، وجدوا أطفالاً يتامى يبكون في

الدروب، وحبيباتهم تحولن للرقص البلدي، وورقُهم السري منشورٌ على جباههم، وآلات الطباعة خرساء، وأصحابُ البدلاتِ الزرقاء يركضون وراءَ الحديدِ في الشوارع، ويتبركون بلعابِ الأئمة والدراويش والعساكر.

كان الزلزالُ والنفي وإنفجارُ الأخوة. كان الأخدودُ والشوي في التنور.

كان لحمُ الطبقاتِ يتكشف عن سرطان.

لم يكن يتوقع أبداً أن تُعصبَ عيناه ليقاد للصحراء، ماذا فعل؟ أية بطولاتٍ تستحقُ هذا العزل الضاري؟ قطارٌ كثيفٌ من لحمٍ رفاقي يُشوى بجمر البراكين، تستقبلهم كرابيجٌ وكلاب، تعصرهم في غرف صغيرة، تطحنهم، وتحيلُ عظامَهم لجريدٍ وعصي تدخلُ في أنسجتِهم، تلهبهم كل يوم، يصرخ: من أين جلبَ كلَ هذه السادية؟ لكن حين وضعوا ابنه هشاماً بين يديه ممزق اللحم سقطَ وصار صخرةً تطلعُ منها حياتٌ.

لم يحلم في أفظع الكوابيس أن يدفن ابنه في صحراء لتحفر الذئابُ القبرَ وتلتهمه.

طارتْ كلُ الذكرياتِ وتحولَ الدمُ إلى بول. والثورة إلى عاهرة، وغدا موسى بعصاه يزحزحُ الأعشابَ عن أسلاك أسوارهم، ويرسلُ منشوراته مع الريح والشوك.

وحدها أمه لمستْ أصابعَه بين القضبان. وأعول حتى السماء السابعة، وفاضَ على صحراء لا تنبتُ شوكاً.

أرأيتِ يا أمي ماذا فعل جمال؟ قتل ابني وابنه الذي كان يحبه كما قال. خطفهُ من روحي.

هو لم يدر يا ولدي. العساكر هم الذين أخذوه. قالوا له وجدنا ورقاً من بيتك لدى هشام! رحتُ له، كلمته، كان هو يبكي. لم أرَ جمالاً يبكي بعد أن لبسَ بدلة الجندية.

هل صار يبكي؟ لا أصدق. فليأتِ ويغرفَ البحيراتَ المُرة من عروقي.

كان يبكي بحرقة. لأول مرة في زمن الرجولة يضعُ رأسه في صدري. يقول لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا يتجسسون عليّ بابني؟

هل كان يمكن أن يصدق أن هشاماً يتحول لعينٍ؟

حين علم أن هشاماً جُر في كبسة الجماعة أتصل وتكلم، وراح الرئيسُ يبحثُ عن فلذةِ كبده، لكن الكلام ضائع، والصراخ في كل مكان، والكلاب تنبح، والعصي تشتغل، والبوكسات تضرب الجماجم، والرئيس يُخبر بموت هشام عبر برقية. فإنقطعتْ الخطوط وتحول ابناي وحفيدي لضحايا.

ثم يزحفُ نحو خطواتهم الأولى، وكيف لم يفطنوا للباس العسكر وإنتشارهم في القصبِ المصري بضراوة، وراحوا يعرونهم من النجوم والسيوف، يكشفون الخزائنَ النامية الجديدة من سرقات القصور.

يعطش ويقدم الماءَ لأقرب عصا محترقة، يهترئُ لحمُه ويقذف رئتَهُ في الصباح ويقدم كسرةَ الخبز لصديق. يسأل كل الجهات والأقمار السوداء ماذا فعل ابني؟ أية مهام كبرى صنعها هذا الشاب الخير؟ بضع سنوات في جريدة، صناعة كتاب نادر، وقدرة مذهلة على إختراع الحب في أوجار الذئاب.

لم تعد لديه دموع، وأوقاتٌ يبعثرها، كل ليلة خلية، وكل خلية حفر في ذاكرة، وكلُ الورقِ يصيرُ فسفوراً، ويحملُ جثثَ الرفاق الشهداء وهو يغني ويتعلم الزغاريد النسائية، ويراقب ذوي الشهية الناقصة، وهو لا يصدق أن ابنه يموت مثل فراشة، أو عصفور عابر لم يترك عقوداً في الزمن، زغردة واحدة ثم إختفاء رهيب.

(٩)

يتقلبُ جمالٌ على فراشه، نعيمة تحترقُ من حرارته، يتجولُ محروساً، يصافحُ الحرفيين من بين السورِ الحارسِ الصخري، يقلبُ كراساتٍ ودفاترَ هشام ويدخل الطفولةَ وزمنَ المرأةِ الصائدةِ للوعول، يرى السحرةَ يرقصون للذبائح، والخبزَ يُوزع بفيضِ السماء، وأخوةَ الحصادين المباركين في الكهوف، يطالعُ سجونَ الصحراء بأسى.

ويقرأُ التقاريرَ عن رسائلِهم التي تمطرُ المدنَ بالأسئلة والشكوك، يحضنُّ هشاماً الطفلَ ويقذفهُ في الهواء وهو يقهقه، يتعلقُ الشابُ بمروحةٍ

ويدورُ ويتقطعُ وتُقذفُ أجزاؤهُ في الوجهين القبلي والبحري وما يأتي النشورُ.

كان الغيابُ الأولُ عن التقارير والخبز والقهوة والشطرنج، إنقطعَ الإرسالُ الشيطاني، ويبدأُ رحلةً لبلاد الثلوج، ويرى الأباطرةَ مدفونين تحت الأرصفة، والأجراسَ تضحكُ للعمالِ والحشودَ تملأُ الساحات، ويحضنُهُ الكسندر ويدور به في قاعات الشعراء والتيجان القديمة والذهبِ الموضوعِ لخدمة المراسلين.

وجوهُ العاملاتِ منتفخة بالصحة والزهر، والأطفالُ سفراءٌ في الشوارع ورياض الأطفال، يعودُ من الجنةِ للمزبلة، يرى حاراته ملأى بالشحاذين والمقامرين والسحرةِ والمشوهين، الثيابُ المرقعةُ تصدمه، أبو الهول يضحكُ عليه ويمدُ يدَهُ طالباً نكلةً، وخوفو شبهُ عارٍ يزحفُ على الرصيف، ويصيحُ هشامٌ فوق الصليب، يحمله من السرير للقبر.

كيف تصنعُ إشتراكيةً بدون إشتراكيين، وتَضعُ حداً لجمهوريةِ العيارين، والخيوطُ كلها تشكُ جسدَهُ وتخيطهُ وتملأه قطناً، يصيحُ في الميدان:

أيها الأخوة المواطنون!

العساكرُ تجري نحو المصانعِ والمزارع، تدورُ الكراسي الفخمةُ وتقذفُ بالقبعات والسيجارات وتزغردُ النسوةُ في الحواري، وتنفلق رؤوسُ سجناءِ

الصحراء، وتمتلئ حقائبٌ جديدة، وتهرب حقائبٌ قديمة، والآلاتُ تصدأ، والعماراتُ تكبر، ودخانُ المصانعِ يغطي القاهرةَ بقبعةٍ كبرى من السواد، والباصاتُ تمتلئُ وتنفجر، والمحطاتُ تنحني إجلالاً للهياكل العظمية المنتظِّرة، والإذاعات والمحطات والشاشات تجلجلُ بالأغاني الصاخبة.

يدور حول شقة إبراهيم وفاطمة، ولا يدخل، لا يقدر على لبسِ ملابس هارون الرشيد التمثيلية وطاقية إخفائه، منذ أن يتحرك تُعلن حالةُ الطوارئ وتتفجرُ صفاراتُ الشرطة وسياراتُ الإسعاف، وإبراهيم حين يخرجُ لا يزوره، والبابُ يُفتح في وجوهِ عائلته، ويظل مطروداً من الأسرة.

الفلاحون يهربون من الأرض، وتتفجرُ الدماءُ في قرى، صلاحُ الدينِ يمضي للقدسِ في السينما الملونة، وتتكسرُ سيوفُهُ عند القناة. يمشي ممزقاً، سقط تاجُهُ وعمامتُهُ ودخل حارةً والناس تحمله للكرسي المحطم.

يأتون من سجنِ الواحات لابسين الشوك.

يجلس أمامهم، يرى هياكلَ عابرة للرمال والشوك، لم تبق فيهم شوكة، وأخوه لم يحضر، ووزعهم على أرشيفات الجرائد والمطابع والكتب.

(١٠)

لم يعرف هارون نفسه في مرايا الصحراء، لحية كثة وعقال، ورجال سحالى يأكلون ورقَ النصوصِ كل يوم، كأن البادية صارتْ أحجاراً وقطعاناً ولحى وأحجبةً وسحرةً وترتفع حولها قضبانُ الدخان، وحقولُ مصر المحروقةُ ترمي إليه بفلذاتِ أكبادِها.

مشوهين ومنتوفي الريشِ يُذهلون من الفول الكبير والفللِ والبيوتِ والعربات الفارهة والتلفزيونات الملونة كأنها شاشات سينما، والمساجدُ مليئةٌ والعقولُ متصحرةٌ عشبية يابسةٌ تمشي فيها الإبلُ، وهو يركضُ من عمارة إلى عمارة، يؤجرُ شققاً ويدسُ الأخوةَ في بعضها ويصيرُ المكتبُ ورشةً تنخرُ في البدلة العسكرية النيلية الضارية، البدلةُ صارت تغطي المشرقَ كله، تحتها ضجيجٌ هائل، وفيضانٌ من الناس يتدفق يزيلُ أشواكَ الحدود ويملأُ الحارات والمقاهي بالخطب والصراخ، وجمال يصيرُ إلهاً، وهم يتحولون إلى ضحايا كأنهم صراصير يُدعسون بالأحذية، ما تكاد تظهرُ لحيةٌ حتى ينهمرُ الرصاص.

حتى جاء أحمس جالباً فيضانَ النهرَ معه، وعرائسَ المُولد، وحرائقُ الزعيم على جلده، وفيلما ضار من أخراجه وهو يحفرُ جدارَ السجن ويهربُ في الصحراء ويندس في قبيلة نوبية تحملهُ للهضاب البعيدة.

غيروا اسمَهُ إلى أمجد لكنه ظل يمشي في الطمي نحو الحقول البعيدة، يبكي لضياعِ جثثِ الجنود في سيناء، ولتغلغلِ الحديدِ الملتهب في لحمِ البحيرات المرة، والقناة تُشوى بالبواخر المحترقة، وأجسادُ الجند تطفو على وجوهِ الماء، وهتف هارون: لنسجد لله إذ أذلَ الوحشَ! لكن أحمس بكى ومضى لسفارةِ بلده وأعلن تطوعه، وأبقوه زمناً في ملف، وطلبوا منه أن يكون عيناً على هارون فقلعَ عيناً وهرب.

العماراتُ والمصانع وموجُ النهر والطمي والأغاني والرياح والرجال والنساء والأولادُ والمسارح والأهرامات والبدو الرحل وأقزامُ السيرك كلهم تحرروا من القضبان، البالون الهائل الذي يسدُ عينَ الشمسِ والقمر إنفجر في السماء إلى قطعٍ من الجرادِ المحترق والخبزِ الأسود ذي التراب والسراب.

وهو يمشي فرحاً لحظةً ويبكي لحظة، فيما أحمس يسربُ المتطوعين ويحولوهم لسكاكين على ضفة القناة، كلما تدحرجتْ جثثُهم من ضفةٍ تصدوا في الضفة الأخرى، ثم صاروا ضباعاً بين الحقول والبنادر.

يمتلئ مسجدُ هارون وقاعتُهُ بالمستمعين الفائضين بحبِ الأرض والسجود ويسربُهم للخزائن والدكاكين وينحنون لرذاذِ الفضةِ تحت البشوت الصحراوية وتتحولُ بنطلوناتُ نسائهم لعباءاتٍ وملاءات ويتتبعون المتاجرَ المفلسة والعمارات الساقطةَ والاستراحات المُباعة، أصابعُهم تتحسسُ كلَ يومٍ إعلانات ووفيات الأهرام وتسحبُ خيوطَ الأزقةِ والحقولِ البكرِ والقاماتِ الشاهقةَ والعقولَ اليائسةَ إلى مدنِ الصحارى وذكرياتِ الصحابة.

هل يمكنُهُ أن يصدقَ أن جمالاً يتحول، تظهرُ له لحية صغيرة وجبينُهُ يعرفُ الخضوعَ وأثلامَ الأرض؟ يُفرجُ عن العمارات الموقوفة وأراضي الحراسة والسجناء ويحرقُ الأشرطةَ ويفتحُ الحدودَ للأخوة الأعداءِ وللآخرةِ ويحتضنهم في قصر الحكم المتواضع؟

هل يمكن أن تزول الهوة بينهما ويلتقيان بعد الحبس والطرد والضياع والذل في الغربة؟ هل يلتقي الأخوة الألداء؟

وهو قضيته لم تزل ساخنة، الرصاصُ الذي أطلقهُ غيرهُ ما يزالُ باسمه، وظل هروبُهُ أعجوبةً للمقاتلين، وكلما ودعتُهُ قافلةٌ عائدة لمياه النيل وأسماكه وقد إنتفخت الحقائب والصناديق بالكهربائيات وقطع الأثاث كلما أشار لعمارة ووضعَ دائرةً على أرض، وأصبعَهُ الضخمة على شركة، الشكرُ الدائمُ لله والصلواتُ تتغلغلُ وتسحبُ القرويين من منازلهم وقبورهم وحاناتِهم والأمير سلمان يتحدث عنه ويؤسسان شركةً، ورأسُهُ تتقاربُ مع رأس جمال، وأفراسُ النيلِ تستحم في النور، وجمالٌ بين الخنادق، وكراتُ النارِ تتفجرُ في الضفة الأخرى، وما تزال الأخوة بعيدة، وإبراهيم يخرج كهلاً، في الذروةِ لحظةٌ وفي القاع لحظة أخرى، وفي الذكرِ لحظةٌ وفي الغياب لحظات، ولم يأت للحج مثل كثيرين من رفاقه الأشاوس، أولاد هارون وبناته عادوا لعماراته وشركاته ومخازنه وفنادقه التي لا تقدمُ المشروباتَ الكحوليةَ إلا في السر، دوائرٌ من الوهجِ والأفراح والليالي المضيئة تأسرُ الضفاف، كلُ أناملِهم وعقودِهم وصفقاتهم وزوجاتهم وأصدقائهم تظهرُ له على الشاشة ومساعدوه يدققون في البصمات والكلمات والآهات، والهواتفُ ترنُّ عليها أجنحةُ الملائكة والأوراق الخضراء.

لكن زينب ما عادت شهية، ترهلتْ أيضاً، وبه قوةٌ وفحولةٌ والفراغ الرهيب حوله فهل يتزوج عليها أيضاً أم يصبر؟

الأمير سلمان يريه نسوةَ جوارٍ آخاذات، ويسهران معاً بلذة ومودة.

فيا لجمالِ الحجازيات والنجديات؟

(١١)

يعودُ جمالٌ لحيهِ المليءِ بالبشر والصحفِ وزعيقِ الباعة وموزعي الصحف والخالي من المرشدين، والمليءِ بالمواطنين الصغار المحشورين في عروق الأرض الضيقة، جسدُهُ مشلول، حملوُهُ في نقالةٍ عسكرية وإنتظروا موته.

البدلاتُ ذاتُ النجوم والشرارات تساقطتْ وغاصت في الرمال، دُفنتْ في الصحراء ثم خرجتْ أرواحاً تحوم.

قال له موسى لم تصرْ إلهاً بل روحاً خبيثة، شيطاناً!

ورأى القبائلَ والموتى تمشي في سيناء، والطيورَ تستحيلُ لطائرات تقصفها، ولم تُسقطْ خبزاً أو سِمّاناً، بل ألعاباً تنفجرُ في أجسامِ البقر ومدارسِ الأطفال.

مشى بين البدلاتِ الفارغةِ من العظام، والحشودُ تصرخُ باسمه، تخرجُ من المراكزِ والمقابرِ والعشش، تركضُ لوجههِ المتألقِ ثم الممزقِ في الميادين، الأضواءُ والعيونُ والخناجرُ والقنابلُ تحدقُ في بيتهِ وتماثيله المتساقطة، أصابعُهُ تمتدُّ على خيوطِ النيلِ وتصيرُ سنابل، ومصانعَ، ودخاناً، وأظافرَ، وعصياً تنتزعُ الكلمات، المدينةُ تستحيلُ لمقبرة، والأمهاتُ خرجنا يبكين، ولم يعدْ أحدٌ يأكلُ إلا أعضاءَهُ، وأنتشتْ أغانيهِ الصارخةُ، وطوابيرُهُ الآلية، وبيارقُهُ النازفة، سحبوهُ وقطعوهُ وأغرقوهُ في القناة؛ قطعٌ في الصحراء، قطعٌ في بادية

هارون، وجنون موسى، ورأسُهُ عشٌ للطيور عند الأهرام، وخرجَ الناسُ من الأقبية، من جذورِ السنابلِ، من تحت الموج، ومغاراتِ سيناء المقاتلة، من بيوتِ المدنِ المنطفأةِ النور، سحبوا أجزاءَهُ عن النسورِ الجائعة، عن فرسِ النهر وهو يأخذهُ للبحرِ والسفنِ الخشبية المهترئةِ والغواصات الجائعة، أحتضنوهُ وهو يمشي لقبره، ربطوهُ بحبالِ الشعر والصراخ والمآسي وظلال المسرح، رَكبوا أجزاءَهُ بقطعِ الألعابِ الطفولية، عملوا أسبوعية الدم وقفزوا على خلاياه التي تصلُ الصعيدَ بالجليد، بالحديد، هدأ ضجيجُهُ، سطعتْ عيناهُ كشلالِ نورٍ، خرجَ من كهوفِ البحرِ الميت والبحر الأحمر في موكب الخيام والملاجئ والبنادق، نزلَ مطراً من الرصاص، إخُترقتْ الطائراتُ الحائمةُ على العظام وتحطمتْ، سارَ في موكبٍ من الأطفال الممتد من البحر للبحر، خرج السجناءُ من الكهوف والزرائب، مشتْ الأمواجُ في الشوارع، طفا جسدُهُ على البحر البشري، تراكضَ الراؤون والمنجمون والجلادون ليلحقوا بسحابته، فتحَ الزنزانات، حرقَ الأشرطة، تتفجرُ الأوامرُ فزادَ الدخانُ في المصانع، البدلاتُ الزرقاءُ تعمل منذ الفجر حتى الفجر ولا تطلع الشموس من جهة البحر، يحدق في ابنه المحب لتفكيك السيارات، يرى نفسه، الابن عبدالحميد يعرض مرآة، ابنته منى تواصل الكتابة عن سره الغامض، تتلعثم، وتظل ساكنةً تسجدُ له، ونعيمة صامتة، تلبي الأوامر، مذهولة، فقدتْ شظاياها وبراءتها، النجومُ تتحركُ وراءه وهو كهل متعب،

يجثم في الخنادق، ويطلقُ النارَ على العدو، ويحرقُ دبابات، ينتقلُ بين الرجال المدفونين في الرمال، يصيرُ موجاتٍ تضربُ الصخورَ وتنفذ بين الجبال، والطيور تُحلق، لا كسرةَ خبز، ولا لحم السمان الطازج اللذيذ، والقبائل تضيع، تتكلم بلغات كثيرة غير مفهومة، ويقولُ موسى: الآن عبادتك واجبةً يا إلهي! وأخوهُ هارون يبعثُ ألغاماً لتنفجر تحت أصابع قدميه ويصرخ في الصحراء؛ ذاك فرعون الذي هوى! وينتشرُ الأقزامُ حوله، هو مسجى على الترابِ والسلاسلُ تتزلهُ للقبر، ولصراخِ المومياءاتِ في الكهوفِ، يغرزن الإبرَ لتتفجرَ سحاباتُ البخورِ والحضور، جماعاتٌ من الأقزام تسحبهُ نحو البحر، جماعاتٌ من الفحم والأوهام والأنغام تسحبُهُ نحو الغابات وترقص حوله وتشعلُ أطرافَهُ بأغصان الشجر الميت، يضيءُ في الغابة دائرة كبرى من وهج وحضور وكلام مقبور وكلام مهدور وموجوع.

(١٢)

مريم صارتْ بجعةً فوق مسرح الماء، تمشي على أصابعِها، تسبحُ في الموسيقى، تطيرُ ويحضنها أمير، أكفهما تلتصق وهي تصيرُ حمامةً وتطيرُ في موسيقى الأجنحة، وهو يغدو ممثلاً ثانوياً أبدياً يقبلها ويحضنها ويحترق العش.

يجريان في رأس البر، يتقارب رأسهما في عش الاسكندرية، يجمعان لحناً من أغاني الأطفال والأعراس، ويرقصان على المسرح بملابس الألوان وبالأقنعة ويفتحان الأكواخ للعشاق، والجمهور يصفق.

البجعُ تندفعُ موجةً عنيفة تتساقط، رؤوسُ صيادين تطلع من بين السنابل والشواهد وأندية الصيد، وتضحكُ مريم في الكفتيريا وتتسللُ إلى قاعةٍ مضاءةٍ بالشموع، وأصابعها يحتضنها الأميرُ الشرقي القادم من الأزقة النازفة من رئاتها، تشربُ كأساً واحدة وتغرقُ في الفرح والحزن، وترى الجمهورَ الصغير نصفه أبيض ونصفه أسود، والموسيقى تخضها وتجعلها تقتربُ من أبيها، ومن أخيها الشهيد في البراري، والتجاربُ تتوقف وأميرٌ يتصلُ من الإذاعة حيث يحشرج صوته ويترف، ويطيرُ على رذاذ الماء ويشرق ويُلقى على الرصيف، وينتقل من أكواخ الصيادين لغرف السطوح، ويصيرُ ممثلاً ثانوياً بحنجرة قتيل، وهي تدخلُ الفيلمَ على إيقاعات طبلة الإثارة، والخلاخيل، والعيون الواسعة والأسرة المهتزة، وشواطئ الصيف العارية، والقبل الملتهبة، والرقصات تقتل اللقطات والكلمات، والجمهور منتش.

يجيئان للقاعة المشتعلة بالقناديل والمناديل ويشربان كأسين ولا يضحكان، أصابعُهما لا تلتقي، وهي تجري نحو سيارتها، وكلمات المعجبين والتجار واللصوص.

يوزع أخوها أحمد كتابَهُ على الأصدقاء، ويشعرُ بإبر غائبة من السطور، الوجوه تغدو مثل الطيور، والرزم تتكدس بين الجدران، وأمهما تتحسسُّ الأقلامَ والترابَ والتمائم المدفونة تحت النيل الضائع في الشمال.

يضع أميرٌ جثةَ أخيه لرسمها بكلماته فيبكي.

يعودُ فتحي من اليمن بهيكلٍ عظمي وصمتٍ مروع وقاتٍ لا يتوقف.

الأمُ ترتجفُ من العطورِ والزجاجاتِ والفساتين الغريبة والغيبات الطويلة ومن أنفاسِ الرجال في لحم مريم، وتصمتُ الأوبرا، وتغرقُ الإسطواناتُ الصلواتُ المتحشرجةُ النائحةُ في موتِ النهار، وتمسكُ فاطمةٌ مريمَ بقوةٍ قاهرةٍ تصرخُ فيها: ماذا تفعلين؟ من أنت؟

الأوراقُ تنهمر، والأشرطةُ تدور، والرقصاتُ تتفجرُ في الشاشاتِ البيضاء، وسيقانُها كثيرةٌ وأسرتُها حاشدةٌ بالمراهقين، والرجالُ منتشون بالجسدِ الجميل الفخم، والثديانِ رمانتانِ تتفجران في وجوهِ المسعورين شهوةً وغلمةً وحزناً.

تلتقي أصابعُها بألحان أمير، صوته يتواطئ مع أحلام النوبيين، وطمي النهر، ومع الفجر، يمشي فوق النمل الذي يأكلُ سواعدَ بناة السد، يصيرُ طيوراً فوق عذاب الواحات، ويهزُ جمالاً في غيبوتِهِ الطويلة، يصيرُ أحلاماً في صحواتِهِ القليلةِ، وهي تنتفضُ وتبكي وتمطرُ خجلاً، وتهربُ من عينيه، وتتروي في ظلمةِ شقتِها الواسعة، تطالعُ أفلامَها وتسمعُ أغانيها كلَ ليلة وهي تتقيأ.

السيارة والشقة ونوم الظهيرة والليل هو اليوم، والوجهُ الجميلُ يبقى، يتألق، يسافر، والعملياتُ تكشط الحبيبات الغريبة والثنيات والتجاعيد المبكرة والشحم المهاجم، وأصواتُ أمير تكسرُ الغيمَ السماوي، وتحيلهُ خبزاً، وتمتد خطوطهُ عبر السكاكين والتابلوهات والحانات والنار.

لا تصدق إن أباها إبراهيم يطالعها ويصفعها في أول لقاء بعد سنين، كانت تريدُ الانقضاضَ على صدره والبكاء الطويل، ليس في يديه سوى الجراح والأوراق والرماد، وذكريات الابن، وحشد الحي يذوب بعد تأدية الواجب، فوقه عباءة الخماسين الوطنية وقد صارت نجوماً عسكرية.

(١٣)

لا يصدق إبراهيم ما بقي منه، مجرد نورس منتوف الريش، يطيرُ بين الأزقةِ المليئةِ بالخوف والحشود المفرغةِ من شحمِها ولحمِها والمليئةِ تبناً وركضاً وراء الرغيف، أين ذهب الناس؟ أين إختفتْ الجموعُ الهادرة؟ حُطمتْ الإسطواناتُ وإنتشرتْ عرائسُ المولد وأغاني الصوفية، والبدلات الزرقاء تُعسلُ في المقاهي وتمتدُّ أصابعُها لحوريات النيلِ الغارقة.

يهزُّ ابنَهُ فتحي، يهزهُ فيمسكُ جثةً حية، تتساقط أعشابُ اليمن الصفراء وخرافاتهُ، ويظهر الأئمةُ يبيعون المخدرات ويلوكونها في أفواهِهم المنتفخةِ يصبون عليها شاياً أحمر، لم يقبضْ فتحي من البوارج والباخرات

وجبالِ صنعاء وكهوفِها المحروقة بالنابالم وأغانيها المرحة الراقصةِ وإزاراتها الراقصة في الساحاتِ وبنادقها العتيقة وأعودِها الشجية سوى بضع جنيهات يأخذها من شباك حديدي تتجمعُ للوصول إليه طوابيرٌ طويلة تمتد حتى الميدان.

يهزه، يحركه يتحول لدمية في الليل يربضُ عند مقهى، يهزهُ ليصير زوجاً، وأباً، وقارئاً، لكنه لا يصير سوى نكتٍ وورقِ لعبٍ ونردٍ يهزأُ بالأيام، ومعسل يتبخرُ بين الأنام، ونومٍ للظهيرة وآلة عظمية تتحرك ببطء شديد من الفراش إلى الفراش.

وأحمد كبرتْ لحيته، دفنَ الأعمالَ الكاملةَ الروسية، وصار دودةَ تراث تنسجُ لحيً وحكاياتِ تصوفٍ وتنشرُ وجوه الصحابة ويمتعُهُ حين يرسم الخطوات العادية على الأرصفة المعوزة المليئة بورقِ الشجرِ الذابل وورق الجرائد المأكول وحكايات الحب الصغيرة المعذبة بين الشوارع المليئة والشقق البعيدة في سماء الخلو والعلو.

رفاقهُ سهروا وإفترشوا النارَ معه فلماذا تفرقوا واختلفوا وضاعوا وذابوا؟ رفعت وأمين وسالم يعرفُ كلَ الحفر والندوبَ والمخاوف والقمم الضوئية فيهم، وابتعدت الأجسادُ الحيةُ المشتعلة، والشَّعرُ الغابي في الصدور، والقهقهاتُ المقهورةُ والسجائرُ المنتزعةُ من بين القبضاتِ والقيود والتراب، تناءتْ وراء المكاتبِ والجمل والبالونات الطائرة في السماء والشقق المنتزعة

من بين الهياكل العظمية للتراحيل، والنوبيين الضائعين في الزحام، هل بسبب إنه لا يعرف القواميس والكتب الضخمة وبقى غزّالاً مشتغلاً وعاطلاً؟ هل لأنه تاه في غابة المصطلحات القادمة من بلاد الثلوج والتنانين؟ يصرخون فيه ألا ترى المصانع تتنامى من بين التراب والتلال والفقر والمستنقعات والريف الغافي؟ يعبأون الناس كزجاجات بالمصطلحات، يحشرون عمالَ وموظفي الصحف ويمطرونهم بالكلمات، يحفرون ويضربون بالسكاكين الحشرات الصغيرة التي تتكاثر بصور خيالية وتتغلغل في العيون والوجوه والبطون المخازن، يقولون سنجدُ لك وظيفةً في صحيفة، ستغدو سكرتيراً أو بواباً أو حارساً، وهو يسهر طوال الليل يتابعُ الحروفَ التي هربتْ منهم طوال سنين، يتتبع لوحات القرى المدفونة في رماد المصانع، وقوافل الهاربين للمدن، والبلدات البعيدة الشاحبة التي تغرق في العتمة والموت، وتشاجر الرفاق أيضاً، سالم إنتمى لناجي وقبضته الواسعة على البدلات الصفر، ورفعت صار تابعاً لمحمود وكل من الضابطين يتنافس على حب جمال، هذا جمع الخلايا الميتة شبه الطالعة بذهول من الحارات والنامية نحو الشجر الأصفر، وذاك أوغل مع تماسيح النيل ومقاولي الأنفار.

عشرُ سنواتٍ وقلبُهُ عصفورٌ يشتبكُ مع الأسلاك الشائكة، كل الحبر السري والرسائل والحمام وشعيرات الراديو الرهيفة والورق الرقيق المتحول شرارات، كانت عالماً آخر، جمهورية باطنية وسط عوالم الذئاب، أين إختفت؟

فاطمة ترقد قرب نافذته لترى النسورَ تشيخ.

هذه العمياء أصرت على عبور الصحارى وإنتزاع عظام فلذة كبدها من الكلاب والذئاب الجائعة.

أحدثتْ جنازةً وسط النائمين والناسجين.

قلتم سنكون إعصاراً بعد القواقع النارية فماذا حدث؟ لم يأتِ أحدٌ من أصحاب الغزل الصحراوي؟

بطولات كانوا، ولكن حين خرجَ كل واحد رقد قربَ دفءِ زوجته، وتابع بناء بيته الخراب، ورممَّ جسده، ودفنَ روحه.

كنتُ أسمعُ كلماتٍ غريبةً لم تكن تتردد من قبل، جاءتْ أكلاتٌ غريبة ومصطلحاتٌ نتنةٌ من صوبِ الصحراء.

قبضتْ الصحراءُ دوماً على أرساغ أقدامنا ودفنتها في الرمال والخرافة، كلما طرنا شكتنا السهامُ السامة!

(١٤)

بين النهرِ والأحداثِ الفرعونيةِ خطوطٌ صغيرةٌ ضيقة لدروبِ الأمهات.

بين الحصى المتبقي من الأساطير الأيدي المعجونةِ بالطينِ والأرغفةِ السوداء الطالعة من التنانير وحشود الطيور المذبوحة.

أسماءٌ ذهبَ عنها زوجُها قبل الأناشيد و لم تستطع الأرضُ أن تعفرَ جبينَها ووجهها، وظلتْ تصلي للشمس، ابناؤها ضلوا عنها، وغابوا وأغتربوا ، في كلِ نوبةِ ضمير، أو صحوة طوفان، يحنون إليها، أو يتمرغون في ترابِها وذكرياتها، وزوجُها الذي جاءَ من بلادِ السحر ونوبةِ الشهوة والنار، لم يستطع أن يذوبها على السجادة أو الفراش أو بالدوائر الفضية فاختفى تاركاً أسطورةً مهشمة موزعةً على كل روافد النهر.

تلدُ التوائمَ وتنقذُ الماعزَ المحصور بين الصخور، كأنها هنا مع النهرِ تلدُ الحياةَ، حفيدُها حسن يصنعُ التماثيلَ للحكام عبر العصور، ويكره النساء والحمام.

ها هو كل بضعة شهور يذهب لجمال يسجدُ له بقطعةٍ من صخور.

طردهم من بيت ابنها وحوله لمتحف وملهى ومسرح لعرائس المُولد وللزار.

جاءتها زوجةُ ابنها هارون عائشة تحملُ ذكرى ابنةً من نسيج العرائس، مغطاة عن النور والهواء والهوام، تبكي لضياعِ العربات والعباءات المقصبة بالذهب، لا تزالُ تهتزُ لذكر الفلل والصحراء والفراغ البشري.

تصرخ ذكرى على الطيور المهاجرة والسمان والجراد والرماد والغبار والزحام، تركضُ في الحلم نحو الخيام، وتعرَّسُ على الشيوخ ذوي اللحى الكثة الذين يأكلون ساقيها ونهديها في كلِ ليلة، وتتمرغُ صباحاً بالتراب واللهب وتقذفُ الحجارةَ على الهوامِ والبهم.

أمُها حملتها لكهوفِ السحرة ولخطوطِ الفراعنة وأرقدتَها في سرير حتشبسوت لكنها تتفتتْ وتحترقُ لتصير عروسةً في خيمة.

أبناءُ ابنها هارون كثيرون أسماؤهم من الصحابة والنبوات والأخوة، يأتون ليعرفوا تمددَ أملاكهم، ويقفون بسياراتٍ باصات يكادون أن يشحنوا القريةَ فيها والعرائس والمسلات، يبتعدون عن دخانِها وخرائط جلدها، ويدخلون العمارات والمراكز وناطحات السحاب.

يحسبونها صماء وخرساء، يقرأونها من وراء الزجاج، ويحولون كلماتها وصرخاتها لتعاويذ، وأحجبةً لزوجاتهم المصابات بالقروح والعقم، كل مرة يقولون إن ابنها هارون سوف يأتي، ويحضنها ويصنعُ لها قصراً، ويريحُ التلالَ الحجريةَ من فحمِها.

تهذي كثيراً وتحلمُ بعبدِ الواحد، ومراعيه وقطعانه وأسراب طيوره وحكاياته، إختفى اللحم وبقي الكلام يُعرشُّ في روحِها.

(١٥)

قمْ إلى شعبكَ يا جمال لماذا أنت نائم؟ راقدٌ في أوراق البردى، تستحمُ في بركِ العذراوات، وتتركَ شعبك يتشردُ في الفيافي وفي بلدانِ الصحارى يبحثُ عن عيشه في الترابِ، يا جمال، يا هارون، يا موسى، يا إبراهيم، تعالْ إلى البحر الحي وأغطسْ وأمسحْ رؤوسَ الأولادِ والبنات ليتعمدوا ويصيروا عمالاً في ورش النور والمعارف.

يستيقظُ جمالٌ من نومه، يرى النافذةَ الكبيرةَ وناطحات السحاب إبتعدتْ عن النهر وامتلأتْ الجسورُ والطرقُ بالعرباتِ وعلى المياهِ بواخرٌ تسيرُ تطلقُ بخارَ الحياة من أفواهها البيضاء.

يترل مذهولاً.

ينطلقُ في الشوارعِ المزدحمة، السياراتُ والدخان والزحامُ والمتسولون والمشردون والعساكر تقودُ الإضاءاتِ الشحيحةَ، تجمهروا حوله، دفعتْ الأجسادُ الحديديةُ الكتلَ البشرية الصائحة الفرحة النائحة.

يمضي بالسيارة الطويلة، الجمهورُ غيرُ مبال به.

رفعَ رع يديهِ تحيةً للجماهير الحاشدة الشبحية، زالَ الجمهورُ وظلَّ رع صخرةً تمطرُ رماداً.

الناسُ محشورون في الأزقة الضيقة، الشوارع مزدحمة، والرجالُ يتصارعون حول فتاتِ الخبز، والبضائعِ المهربة، والنقودِ الورقية المهترئة.

يقول محمود:

الجمهورُ كله يحتفي بك!

حشودٌ لا أول لها ولا آخر، هتافٌ أصابهُ بالصمم مرات.

يترلُ، محمودٌ يمسكُ بتلابيبه، جمالٌ يبعدهُ، يتقدم الرجالُ والنساء بالوناتٍ ملونة، يمسكُ جمالٌ واحدةً فتنفجر في وجهه، يمسكُ أخرى فتطيرُ

وتفرّغُ هواءها بذيلٍ ساخن يحرق عينيه. يمسكُ ثالثةً تصيرُ مسدساً يطلق رصاصةً كادت أن تصيب أذنه.

يدخل الزقاق. بائعُ الفول وراء حشدٍ وذباب، الصنايعي في الورشة، عجوزٌ يضعُ قلماً على أذنه، ونظارةً ثقيلةً على أنفه. والصبي مشروعُ قنبلة.

يقبلُ يدَهُ وهو يسحبها. يتزلُ للترابِ يقبلُ قدمَه.

ينحني إليه ويحضنُ الولدَ الضعيفَ المتلاشي بين أصابعه.

يدخلُ المقبرةَ فيتلمسُ ثللاً وجماعاتٍ تغزلُ خيوطَ الموتى وتترعُ أسنانَها لتحيلها لعملات. يتكلمون مع الجثثِ عن القيظِ وأسعار الأرز والسكر والمواصلات. والموتى يسألون أما زالَ النيلُ موجوداً؟

لم يعلبوهُ ويصدروهُ بعد.

ينتصب جمالُ تمثالاً هائلاً وسط الأجداث والمكعبات المليئة بالعظام، يمطرُ نقوداً صغيرة ويتراكضُ الموتى إليها، والساكنون الأحياء يصارعونهم، ويضربونهم، والهياكل العظمية تنسلُّ بها وسط التراب، وتنتشر ضحكاتٌ مروعة، ويعودُ الأحياءُ للدخانِ والعراك.

يرى يديه فارغتين، يمشي في الظلام، حيث هرمٌ تتسلطُ عليه أضواءٌ كبرى ملونة، الغناءُ يمسكُ تلابيبَ الكونِ والراقصات يتلوين والصوتُ الهائلُ يخرجُ من الصخور أفيوناً.

يطلع رجلٌ ملتفٌ برداء، فوق رأسه قبعة غريبة، يمشي إليه بهـــدوء، تتسلط عليه الكشافات، يلاصقه، وينظر إليه بغضب.

الحرس يتدفق ويحيط بجمال.

الفرعونُ يصرخ ويمد صولجانَهُ الكهربائي المتفجر.

جمالٌ يثبُ نحوه وينتزع الصولجانَ ويقذف به نحو الجمهور.

(١٦)

فتحي يتفعى وسط الرصيف، سيارةٌ توقفه ويطلُ وجهُ رجلٍ ذي لحية وفيه ضربة حصى في الجبهة، ويسأل عن السيد إبراهيم!

سيارةٌ لا تستطيع أن تدخل الزقاق وتنهمرُ نجومٌ صغيرة منها.

فتحي يغورُ في المقهى يطلقُ سحباً من الدخان. يتأملُ كهوفَ اليمن، يرى العساكرَ طوابير طويلة تذوب بالرمانات الحارقة، والشظايا البـــشرية تشاركهُ في الأرز والشاي. يمشي نحو كهفِ المرأة بلقيس، يزحـــفُ بـــين شبكات العنكبوت، تطير الحماماتُ ويفقس البيضُ حياتٍ صغيرة تهاجمه.

المرأةُ ذاتُ وجهٍ متألق جميل، عيناها بحيرتان تطيرُ فيهما الكراكـــي والبجع، تنفثُ لغةً قديمةً لا يفهمها، يجلبُ لها الماءَ والزبائنَ والـــضالين في شعاب الجبال.

على الجدران خطوط غريبة. حفرَ فوجدَ عملةً فيها ذوالقرنين يهـــزأُ بالزمن، وثمة امرأةٌ على ساعدها نسر، وثمة حيةٌ تلتـــفُ حـــول عـــصاها المتجذرة في التراب.

النسرُ يقبضُ على الصاعقة. والفرعونُ ملأ الأرضَ حراباً.

المرأةُ تتبدلُ في الفراش، تغدو عاميةً ساخرة من نجمته وبدلته المحروقة وقدومه من النهر للجبال، يرى الحشودَ تبيع الحياتَ والقـــاتَ والتـــرابَ للسياح والعقودَ الزائفة ويقبضون عليه ويضعونه في الحبس، والمرأة تجلب له الأكل والشراب وتسحرُ الضباطَ والجنود.

تقرأ عليه من سورة بلقيس:

للتحول فصول كثيرة، جسد المرأة ربيع الطبيعة، أدخلْ في خلاياي وتكون بشرياً أنسياً جميلاً.

يسبحُ في بركتها الواسعة ويشرب الحليب.

يبحث في التلال والأرض الواسعة والحصى عن عملات، يجد جماجم وسلاسل، وعظاماً أزلية ساخرة بالحياة، يركبُ باخرةً مليئةً بالجنود تزحف ببطء في البحر وترى السفنَ المكتظة بالحجاج الغارقة، حشودٌ من الثيـــاب البيض واللحى والنهود مصانع الحليب المتوقفة المأكولة من سمك القـــرش، يضحكُ بين الدخان في المقهى، وهو يطالعُ الجري وراء القطع المعدنية.

الرجلُ ذو السيارة الفارهة الصادمة للزقاق يحتضن أباه بمودة ويكـــاد أن يبكي. الظفرُ لا يخرج من اللحم. الدم يحن. وأبوه يحدق مذهولاً في ابن

أخيه عثمان ويكاد أن يرى صورته فيه. ابنُ القراءات السبع وتفسير الحرمين يلتقي بالبيان الروسي الحارق، يسمعُ كلماتٍ غريبةً:

جمال الرجلُ الحي الميتُ لا يعترف بقرابة.

أنت سُجنت وأبي أخوك شُرد من دياره.

يغذي فتحي عثمانَ بالأعشاب المشتعلة حلماً، يعزمهُ الآخرُ في فنادق مخيفة، يضع أمامه أطباقاً لا يأكل منها، يرى شقته الفخمة والهواتف الغريبة التي تصل لكل المدن التي تسهر حتى الفجر، لكن أباه يقابله، ويفكر بإنشاء شركة صغيرة لتوريد العمال.

يضحك وهو يطلق الدخان، لا يزال يمشي في جبال اليمن، يطيرُ مع المرأة التي تصطاد العصافير في الأعشاش وتشويها، يقولُ للمرأة: تعيشين في كهفٍ وأنت بلقيس؟ هناك عرشكِ وتاجك، فلمَ تنافسين الجرادَ على أكل النباتٍ؟ صارت العصافيرُ تطيرُ حولكِ سحابات، والأعشابُ تهربُ من نعالك الحادة.

تصيبه حمى وتقرأ عليه بلقيس:

– دعْ هذا الاجترار الأخضر فأشداقك نمت حتى عادت بك لمرعى الأغنام.

يقولُ لأبيه:

أتصير مقاولاً للأنفار بعد أن شويت لحمك في الصحراء؟

أجمعُ بين الكلمةِ والعملةِ، بدلاً من العملات الإغريقية العتيقة النائمة في الصناديق والتي لا تصقلها!

ينغمر فتحي بالجلاليب والصحبة في رماد القهوة، يطالع خط الباخرة العسكرية التي بندرت على صخور اليمن، وجاءتها مدافعُ جبال ردفان، هزتْ أرضَ البخور والعطور والأساطير، وطلعَ منها نسلُ بلقيس الجديد، فماذا بقى في يديه، يفتح صناديق أبيه الأثرية المليئة بورق الشرارة، يرى الخطوطَ السائرة في الدروب، والمكائنَ القديمة التي تترف في الغرف السرية، وعلى السطوح، وفيما وراء حقول الذرة.

يقول أبوه أريد أحداً يعاونني في مكتب الأيدي العاملة، يرى الأصابعَ المقطوعة، والفيلا تعود، والحشيشَ يتكاثر بعد المطر الزيتي، وأباه يتأوه جنسياً في البيت.

يتصل بالمرأة اليمنية فلا تبيعه القات، وتقوم ثلته العسكرية بإرسالها له، وتبدأ شحنات القات في الوصول لأرض بيرة الستلا الزائفة النشوة، لكن إدارة الجمارك تحتجز الشحنة.

(١٧)

إبراهيم كيف تنسى؟ وتعود لسيرة الأخطاء؟ من وجه خطاك للوراء بعد أن كانت للورى؟ ثم تصطادُ الحفاةَ للصحارى والخيام التي صارت غوى؟

يقول ماذا تريد أن أفعل؟ شقتي نضبتْ، وزوجتي عميت، وأولادي خرجوا من أصابعي شوكاً وسحراً وشهادةً وصلواتٍ وأدعيةً ورقصاً؟

والرفاق الذين زُرعوا من شغافِ قلبي تعذبوا ثم تغربوا؟ أخي هارون عرضَ عليَّ كنوزَ الصحراء، وأخي جمال حبسني وقتل ابني، فأي طريق أسلكُ؟ لن أغمسَ يدي في بركٍ ملوثة، سأعودُ للمحلة الكبرى، سأعيشُ بين الغرف الصغيرة، غرقتُ في مطر الكلام أربعين سنة، ثم تحممتْ بالدم، هذا أخي موسى يسبقني للنار، يسبكُ الحديدَ بعد كان أن يهذي في الشوارع يتأمل.

عيالهُ حادوا عن روحه، الورقُ لم يُورق، والتوصيلةُ للمحلةِ غدتْ مهلكة، والعمالُ رثاثُ خلقٍ وهياكل وحشائشٌ تلتصقُ بالأرض، وأجسادٌ قويةٌ وعزائم تتألقُ بعد هبوب الريح، يضعون بصماتهم وأيامَهم وأولادَهم على السكة المجهولة، تغويهم أسربةُ الفضةِ المشتعلةِ على الرمال، ويتسربون للأزقةِ الضيقة في المدنِ البدوية، يتشعبطون في الباصاتِ السائرة نحو الدخان والنار والأسلاك الشائكة والعساكر والخيام، ينامون في الأحواشِ والغرفِ الضيقة، جلاليبهم تحترقُ في المستنقعاتِ الزيتيةِ وتطيرُ بهم نحو الجنان الخالدة في الهواء، أراوحاً تغني وتعزفُ بالأرغول وتدخنُ وتقبضُ على الريالات وتعود بالحقائب المثقلة بالثياب المستعملة والفضة والذهب المغشوش والعملة الذائبة.

يحضنُّ إبراهيمُ أخاه هارون، يرى الفللَ والسفافيد، والحشودَ المهاجرةَ تغمرُ الأحواش، وتتعالى الخطبُ وتتدفق الدموع، يصرخ فيهم هارون

ويتلو((الذين أُخْرِجُوا من ديارِهِم بغيرِ حقٍ إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ))[٣]، الغابةُ السمراءُ تتغلغلُ بين الطعوس، تحفرُ، تفجرُ الزيتَ، تجثمُ في الغرف، وأبناءُ هارون وجماعته يأخذونهم للجبال، ويملأون العرباتَ بالفحم والأحجار النابضة ضوءاً، يحتشدون في الأحواش، ولا يرون نساءً، يتقاربون، أجسادُهم تشتعل، عوضين يعودُ بلا يدٍ، تُقطعُ بين الحشود، وهو يبكي، سالم يصطادُ امراةً ويُجلدُ، ظهرهُ يتمزق ويصبحُ خريطةَ دم، ويجثمُ في الحوش على بطنه طويلاً، أبناء هارون وجماعته يأخذونهم لمقاومة الرمال الزاحفة، يغرسون الشجر على إمتداد الأفق، يشمون روائحَ الأنهارِ المدفونة تحت الرمال، يرون الجبالَ البعيدة تضيءُ بالثلج، والفرات قريب، نبوخذ نصر حجزَ المياه، والبدو، والغارات، والبنادق العتيقة التي تتفجر في وجوه الصعاليك واللصوص.

إبراهيم يصرخ في البرية: يا أخي أما لهذا العقاب من آخر؟ أرى لحم أخوتنا يُقطّع ويسلمُ للكلاب؟

يجثمُ وحيداً يكلمُ الخلفاءَ الراشدين والصحابة والرهبان الشجعان والشيوعيين المحروقين في الزنزانات، ويرى النملَ النيلي يجفُ ويبس ويذوب.

---

[٣] إشارةٌ: سورة الحج ، من آية ٤٠ .

يأتي أبناء هارون وأصدقاؤه ويسألونه لماذا لا تصلي؟ وهو يجمعُ العظامَ المصرية من الحواري، ويرى الظهورَ تُجلد، والرقابَ تُقطع، والأصابعَ تتعاركُ عليها الذئابُ وبناتُ آوى، والرؤوسُ المرفوعةُ تنحني، والثيابُ القصيرة تتغلغلُ في الحاراتِ الذابلةِ في الربيع، وتشتري النساءَ، ويرى البعران تمضي بهن تعودُ للمضاربِ، ومشيها كان سريعاً، حملتْ شهداً وحرائرَ وعبيداً، وتفتحُ محلاتَ الصرافةِ والعباءاتِ والأحجبةِ، والمطاعمَ الأرزية والكباريهات والحانات، وتصلي وتهرسُ الترابَ، وتغني وترقصُ وتضعُ العقودَ الورديةَ المزروعةَ بالعملات الغربية، وتبحث عن جنيهٍ لتوصيلات المطار، أو بضع ريالات للسفن البحرية الغارقة.

يصرخ على هارون: ألا بد لنا من هذا الشرع؟ أما ترى غلمانك وعمالك وتراحيلك يهربون؟

موسى يصرخ به: ماذا فعلت يا إبراهيم؟ من هؤلاء الذين أحضرتهم من أرض النبوة؟ عادوا بثياب غريبة ووجوه غريبة، ويمشون على عكاكيز وأجسادهم خاوية من الروح؟

بين الصحراء والنهر ضاعوا، والريالاتُ والدولاراتُ تحلقُ كطيورِ الأبابيل، ترمي الناسَ بحجاراتٍ من خرافةٍ وتجعلهم كحشائشَ يابسةٍ مداسة.

بين النهرِ والصحراء عادوا في توابيت، على أجسادِهم آثارُ رصاص الأزواج الجنود المحبوسين في الجبهة، رجعوا ورأوا الأسّرةَ ملوثةً بنسلٍ لقيط،

جاءوا هاربين في باصات منخورة، تلتقطهم تماسيحُ البحر، ويعومون إلى الشواطئ والجزرِ الهاربة من أقدامهم، جاءوا بحقائبَ منتفخةٍ فيها ثياب للأولاد يضجون بفرح جديد في مصائد الأزقة، جاءوا بحقائب مليئةٍ بالعملات الخضراء تأكلُ الحقولَ والبساتين المدنية وتحيلها لرماحٍ أسمنتية، إفتتحوا محلاتَ الصرافة وتجول الإسكندرُ بملابسهِ الحربية يأكلُ اللحمَ النيء، وافتتح مطاعمَ للمشويات البشرية.

قال إبراهمُ لهارون: لم أعدْ قادراً على العمل في الهجرة والصحراء، لدي رأس مال سوف أشغلهُ في الحرفة الجميلة، التي أعرفها أقل قليلاً من الغزل وأعلى من أي حرفة أخرى، وعيون مصر الآن مفتوحة، ولسانها يتكلم بضع لغات.

سأفتتحُ صحيفةً تتكلم بلسان الناس، وتنهال عليها الإعلانات من الدول الصديقة، فضحك هارون!

يا أخي بعد كل هذا التعب تضيع فلوسك في الكلام؟ وتضيع عقلك بين الماضي والحاضر؟

لم يهتم بكلامه لكنه بدأ يتشوش فعلاً.

(١٨)

خرجتَ يا إبراهيم من سجنِ الصحراءِ خاويَّ اليدينِ، متوهجَ الروحِ، متألقَ العينين، ورجعتَ يا إبراهيم من واحةِ الصحراءِ مليءَّ اليدين خاوي

الروحِ منطفئ الشعلتينِ، تلبسُ حلةَ الرمادِ ومطعف ذي القروح، فعلى أي الجنبين تميل؟

في الزمنِ الأولِ وأنت ترجعُ ترى نجومَ السماءِ تتوهجُ في نعال الصيادين ورحى الأمهات، وفي الزمن الراهن الصائد لعصافير الروح ترى العيونَ مثل فناجين القهوة تحدقُ في الأزرةِ الفضية والنعال الحجازية.

(عملتُ قرشين) وتدفقتْ القروشُ في الحواري تلتهمُ البناتَ وأضرحةَ الأولياءِ ودكاكينَ النجارين ومكتباتِ الوراقين الشعراء.

سألتْ فاطمة:

من أنتَ؟

أنا زوجك يا حرمة، من سأكون؟

أشمُّ فيكَ بولَ الثعالب.

لم يعدْ قادراً على الاقتراب منها، أمهُ جاءتْ من البلد والتحمت بها. صارتا كائنين لتمثال الأمومة المُبعد من الشوارع والساحات والدستور.

الفيلا ذاتُ الحديقةِ والشرفاتِ والبِركة أعادتْ الروحَ لهواء رئتيهِ النخرتين من بقايا سجائر السجن وحشيش البدو، يرى جثثَ التراحيل تطفو على وجه الماء، الجريدة تنتعش، العراقُ يُضربُ، وأصواتُها تجلجل، دخلتُهُ حميةٌ غريبة، كأن جمالاً في بغداد والصواريخُ الملونةُ تحيطُ بتمثالهِ الطويل الذي يصل للدبِ القطبي، والطائراتُ تحومُ تقصفُ مدخنةَ أنفه،

وتشرخها لنصفين، لكنه يظلُ يتكلمُ مخنخناً، الملاجـــئُ تحتـــرق، عمـــالُ التراحيل يهربون في شاحناتٍ تتفجرُ أطارتُها بالألغام وتتناثر جثثُهم وتصلُ النيلَ والقرى والنوبة وشبرا في توابيت، يرفعُ أسعارَ الإعلانات، يجـــثمُ في مكتبٍ ضخم وسط البلد، يتصلُ بالحزب، يتدفقُ قادةٌ وأعـــضاءٌ وتمـــضي الطائرةُ ويترلون بالمظلاتِ في فنادق الخمس نجوم بين الكرخ والرصـــافة، ويأكلون السمكَ المسقوف، ويصورون قرب البنايات المهدمة ويرفعـــون علاماتَ النصر، ويسبحون قربَ جسدِ سمك القرش الذي يسبح مستعرضاً فتوته.

في الليلِ الذي يترلُ عبر نجومٍ تتكسرُ شظايا من الدمعِ والبرق يـــرى فاطمةَ تمسحُ الورقَ الكثيف عن وجه الماء وتسبح، تتكلم في هاتفها، وتجيءُ الشابةُ لتحك ظهرها عن تنملٍ عصبي إستمر لبضع سنوات حين كان هـــو وراء الأسوار، تقودها كعكاز للمكتبات وتقرأ لها.

في المقر يحتضنُّ الرفاق القدامى وتتفجر الـــسلامات والـــضحكات، وتُخبأ الضربات والثغرات، وتغوصُ يداه في تماثيل ورقية لم تبق فيها عروقٌ تصلُ للأودية، والروافدُ إمتلأتْ بالرمال والأعشابِ اليابسة والهوام والأوهام والآمال النازفة الأخيرة. ما الذي جرى؟ شبابٌ يمضي في أنهرٍ جديـــدة، لم تعد تلك الكلماتُ اليابسة تدخلُ روحه، يمزج بين خيول العرب والأدمغة الإلكترونية. شبابٌ طازج!

أما هم فذات الشلة الصلعاء والشعر الأبيض والجُمل ونفس البوابين وقد صاروا شيوخاً لم يدخلوا خياماً.

ينفجر الهاتفُ في حضنه، يسمع صوتاً غريباً مألوفاً يتكلم الأنكليزية البسيطة، فراح يتذكر!

الكسندر مرافقهُ في جولات موسكو الذي عرّفهُ بالأباطرةِ القدامى وأحفادهم من العبيدِ في المصانع.

فندقُ خمس نجوم وموسيقى خافتة، وعمالُ نظافة مؤدبون جداً والأبواب تُفتح حتى يصل للغرفة الواسعة المطلة على النهر والمكتب والمقاعد المثرثرة مع الغيوم.

وجهُ كهل وجمود غريب، أين إختفى ذلك الاحتضان ورقصات البناء والشباب في الحانات والمسارح؟

يؤشرُ على إعلانات في الجريدة بقرب الوفيات، وأصابعُهُ تمضي لمناجم ما قبل التاريخ.

(١٩)

يرتعشُ حسن بن هارون من ذكر أبيه، طيورُ الأبِ المهاجر ترفرف؛(شبحٌ يحومُ على مصر إنه عفاريتُ الجزيرة)[٤] يسقطُ على ذراع

[٤] إشاراتٌ:(شبحٌ يحومُ على أوربا إنه شبحُ الشيوعية)، من كلمات البيان الشيوعي.

تمثال ويمسكهُ الحجرُ خوفاً عليه من الوقوع، وعيونُهُ تطالعُهُ بوجلٍ ورجاء، يترنح ويمدُ تمثالَ المرأةِ المنفتحةِ شبه العارية ساقيهِ ليحضنه، ويكاد يضغطُ عليه ويصهره، لكنه يحررُ جسمَهُ، و لم يرتعشْ بشيء.

عقودٌ وهو يرقصُ فرحاً بذوبان أبيه في الكثبان العربية الصحراوية، والفيلا غدت حوشَهُ وبركته وساحة عروضه ولعب أراجوزه، ومسرح الظل، والشخصياتُ التاريخية والسحرية تلعبُ على الخشبات ثم تنام على سريره الواسع الوردي، يسمعُ خريرَ الماء.

أبوه كاد يهصره بيديه خنقاً:

ماذا أفعل بك؟ لماذا لا تصير مثل أخوتك؟

لقد القوني في البئر وأنقذني التجار الذاهبون لمصر!

أدخلَهُ الكُتابَ والأزهرَ وحبسَهُ بين ألفية ابن مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم، فرأى جريداً مسنونَ الرؤوس يمتد حتى حدقات السماء، وشعيراتٌ تكّون كهوفاً، وهو يتمسكُ بشعرِ اللحى الكثة، ولكن السوائلَ اللزجة تسقطُهُ في الأفواه، وثمة هديرٌ هائلٌ من اللغة، الحروفُ مناشيرٌ تركضُ وراءه، ويصرخُ أحدُهم: أتعرفُ حسابَ الجُملِ وإعراب النحلة والدبور، والنحويَّ الذي ماتَ غريباً عن الحانات والدفوف، فيتزلقُ في الحنجرةِ الطويلةِ الممتدةِ من أعرابِ المعلقات حتى البيان والتبيين والتبن، نازلاً في شارع محمد علي يهتز فرحاً ورقصاً.

يرى الدمى البشريةَ تتحركُ وتنطقُ فقاعاتٍ ملونةً، والبناتُ يصرنَّ فراشاتٍ يتلاعبن بالأرواحِ والأضواء، والدموع تصبح لآلئ في الأشرطة السوداء، ويذهبُ للنهر والطمي والسنابل وكلما عجن كتلةً ونفخَ فيها من روحه تصيرُ جرادةً تطير وتكون نسلاً يلتهمُ الحقولَ، يحولُ شَعرَ جدتهِ أسماء لحبال تحملُ العرائس فتحبل ويترل الأولادُ يصرخون من الجوع، ويركضون بين الباصات يخطفون محافظَ الفقراء المثقلة بورق زائف وعملةٍ مترنحةٍ على الأرصفة والأرغفة، حتى اقتربَ من معبد فينوس وركعَ ودخل الطينُ بين أصابعهِ وتلوى بين فخذيه وانتشر على شعر صدره مشتعلاً بخوراً دوّخَ الآلهةَ النهريةَ فتدفقتْ حوله وأعطتهُ أكاليلَ الغارِ والجنيهاتَ الذهبيةَ والسأمَ والصمت والفرح.

والدهُ وأخوتُهُ يحومون حوله، ويعقوب المصري بنفسه سوف يجيء هذه المرة من نَجدٍ لمصرَ بعينين عملتين ذهبيتين قويتي الإبصار وبئرين أسودين تغرق فيهما الحمام، تشمُ الأرصدةُ المبنى الواسعَ الجميل، ويتحسسُّ سور الفيلا الذي تركه منمنماً بخطوط مجردة محفورة تسبح باسم الإله الواحد الأحد، وسيراه الآن بلوحات فيها زرقة السماء والبحر تسبحُ فيها الحوريةُ ذواتُ الأثداءِ الرمانية، يتراشقن بالورد، وظهورهن تشع بالخطوط الدقيقة المتجهة للكثبان وملتقى الأعشاب والليل.

تدفقَ مع المارشات العسكرية، لبسَ البدلةَ البنية وحول جدته للفلاحة الأزلية معجونة من الطمي عليها عباءة من أقواس الشمس، تخرجُ من

الكوخ والعتمةِ ومأوى الحشرات للحقول والمدينة، ولكن جدته لم تعرف نفسها، وأرادت رقم جمال الضائع بين القصاصات.

راحت المعاملُ الهرمةُ تظهر والصنايعية يطلعون من الفجر مثقوبي الجيوب ولا يقولون(يا لي معاك المال برضه الفقير له رب كريم)[٥] وكمشيش تطلعُ من سنابل الحصاد دامية[٦] وراحت العيونُ العسكريةُ تتسعُ مذهولة، وأخذوه لجلسات مطولة بالبيرة والحشيشة والجلسات الكهربائية حتى ظهر تمثالٌ كبيرٌ لجمالٍ وهو كأبي الهول يداه تمتدان فوق الجموع النملية. وظهر الفلاحُ يغني للصباحِ والدجاج والخبز الأبيض المنير.

السدُ يتعملق محتضناً السحبَ والبشرَ والحمام تخرج منه الأنهار السبعة تتغلغل في كل بيت.

وحين يرى جثثَ الجنود مكومةً وتائهة في رمال الصحراء، والسفنَ الحربية خربةً ملاجئ للسمك، يتغلغلُ في تماثيله فيجدُ التبنَ والوزغ، وأخوتَهُ يتزلون من الصحراء يسألون عن ورث أبيهم، فتنهمر عليه أحلامٌ وكوابيس يعجزُ عن تفسيرها، ويذهب لدار الرئاسة ويطلب مقابلة جمال لكن عمه في خلوات طويلة يكلمُ سفراءَ المجوس القادمين من الشرق يسألون عن النبوة، ثم أُصيبَ بمرضه، وغابَ عن الوعي، لا يكلمُ الناسَ إلا في الحلم أو بالإشارة الربانية، وإستدعاه في غرفةِ الأكسجين وسلمَه مُلكية البيت، فقبلَهُ وحطمَ تمثاله الفارغ من الروح.

---

[٥] من أغنية لسيد درويش.

[٦] قريةٌ جَرتْ فيها معركةٌ إجتماعيةٌ حول الأرض.

وعمل تمثالاً لمحمود الذي فرح به كثيراً، لكن وُضع التمثالُ في المخزن ريثما يموت جمالٌ لكن جمالاً لم يمت، وبقي بين الحياةِ والحياة، يكلمهُ في الحلمِ فينهضُ فزعاً، ويمضي للمدينة عساه قد قام من بين الأموات، فيجدُ محموداً يلتهم السيارات والعبارات والشركات، ولا يجد وقتاً لـه، وحتى ناجي كثرت أسفاره في بلاد الصحارى، فشكر لهما هذا الأهمال.

ثم جاء أبوه!

(٢٠)

ممرٌ معتمٌ طويل يتراءى لجمالٍ، يرفعُ صوتَهُ فيرتدُّ بشكلِ صوتٍ نسائي، يرى توابيتَ تمتدُ من الفجر حتى البحر، جثثٌ صامتةٌ مصنوعةٌ من ذهبٍ والحشراتُ تتدفقُ منها تحت قدميه، الكائناتُ الصغيرةُ الشريرة تلتصق ببنطاله العسكري المتوهج ناراً.

يقتربُ وإذا رأسٌ كبيرةٌ تطالعهُ من داخل التابوت، يصرخ الرجل:

من أنت وكيف دخلت هنا؟

بعربتي الحربية قاومتُ الهكسوسَ وإنتصرتُ عليهم!

كذاب! أنا الذي قمتُ بذلك.

ضربَهُ بالصولجان فرقدَ التمثالُ ثانية وهو يضحك.

تقدم أكثر، فئرانٌ بدأتْ تخرجُ من التوابيت، تصفرُ وتهمسُ لبعضها، ثلاثةُ رؤوسٍ في التوابيت تنهضُ وتحدق في بعضها، وتظهرُ خرائطٌ لأسعارِ

البورصاتِ العالمية وراء أعناقِها الضخمة، يقفزون من توابيتِهم ويهجمـــون عليه وإستطاعت عضلاتُهم أن تكسرَ بعضَ عظامه، وراحوا يسحبونه نحو أحد التوابيت، وبدت رؤوسُهم تلتف، وظهرتْ زنبركاتُها المرنةُ تصرُّ بحدةٍ في أذنهِ وتدور في كل الجهات، لكنه راح يضربهم بقوة، وتمكنوا من أدخالِ جسدهِ في التابوت، المليءِ بورق التاريخِ المغشوش والعقـــارب، وضـــجتْ قدماهُ وضربتْ الخشبَ القوي، والكائناتُ الصغيرةُ لم تـــستطع إختـــراق بنطاله السميك المتوهج، ثم حدثَ هدوءٌ في الخارج، و لم تكن ثمـــة فتحـــة ليرى، بل يسمع صوتاً قوياً يتقدم، هو صوتٌ مألوفٌ في غدرِ التاريخ.

من هذا؟

عسكري نفر خرجَ عن الانضباط.

وكيف سُمح له بالدخول؟

غفلةُ الحراسِ يا سيدنا.

شددوا الشروطَ حتى لا يظهر نفرٌ آخر، ليس كل مرة تسلم الجرة.

رفعَ صوتَهُ بقوة:

محمود! أنا بالداخل!

لا يَسمع سوى إصغاء خبيث، فيهزُّ التابوت:

أنا جمال محبوس، أخرجني!

شددوا الحراسةَ في المكان.

في الغِرزةِ يراهُ ينتفخُ بالدخان ويقهقه: ياه كان ثقلاً رهيباً، رجل مغرور متصور إنه كائن متفرد في الوجود، وحتى ناجي كان هناك ويسمع ويسكت!

الثلةُ تنهض وتدق الدفوف وتحمل محموداً إلى كرسي العرش، وهو يلبس طرحة خلابة البياض، وحين يجلس على المقعد يتمدد، والتلال الحجرية تتصدع، والهرم ينحني، ومصابيح الغرزة المعشية العيون تتساقط.

التابوتُ يظل مغلقاً، والأصوات تتكاثر، ويسمع ضرباً وخرماً في التوابيت والنعوش، وتندلع شجاراتٌ على عقود ولآلئ، وإنفجارات مدوية، وتدوي أصواتٌ أجنبيةٌ تحفرُ وتحملُ أشياءً، كأنها أصواتُ الضباطِ والعساكر الأنجليز، ثم يهتز تابوته بقوة، ويتكسر جانب منه، ويمتلئ بتراب، كاد يسدُ وجهه، وإهتزازات المكان تحوله إلى ما يشبه طائرة تندفع في السماء، وتعبر الجليد المتكسر والنار الحارقة، ثم تخمد ولم تبق سوى نأمات تحطم الأشياء الأخيرة وكأنها تتأوه، حتى أطبق السكونُ التام.

في اليوم السابع عادَ الهدوءُ الحي، ثمة جسدٌ له رائحةُ المهودِ والطين وتذاكر الموت والبعث، وتشققُ التربةِ وصعودُ الأولادِ والبنات للأعراس والكتابة، والحلاوةُ الطحينية في فم طفل، وميلادُ جريدةٍ ذات سطور نارية في ليل الخوف.

الكائنُ يبعثرُ القمامةَ والأنقاض والجثث المطاطيـــة ودروع الكهنـــة بصعوبة، ثمة صوتان رقيقان يتداخلان ويتكسران ويـــشتبكان مـــع أرواحٍ صاعدةٍ بمرارة، وقوى شريرةٌ محبوسة تتفجرُ بغيظ، ولكن الصوتين النسائيين يَنشدانِ ويُصليان.

أتكون المرأتان نعيمة وابنته؟ صوتاهما ليس فيهما هذه البراءة النهرية الصافية، إن صوتَ أمهِ البعيدِ في الكهوفِ وسنابل القمح وبترنيمةِ الخبـــزِ المشلتت، مميزٌ، إنه يتداخلُ وسيمفونيات بتهوفن الحادة الأصوات، ويُـــنغم بعذوبة موسيقى المُولد وفرقة حسب الله.

(٢١)

حامتْ الطائرةُ على غابـــةٍ مـــن الخيـــام الملونـــة ذاتِ الهوائيـــات والشاشات، واقتربتْ من حشودٍ بشرية ترفعُ السيوفَ البراقة في معـــارك وهمية مع الهواء والأطباق الفضائية، وتفجرُّ البارودَ قرب آذانهم ويـــشمون روائح الحريق في شعور النساء وعباءاتهن.

هارون يحدقُ بإنبهارٍ بالجموع والقصر المنيف يمشي بين حشدٍ منوع ببدلاته وثيابه ونعاله وطيبه، يمشي فوق سجاجيد وزوليات مبهرة، ثم يدخل القصرَ ذا القاعة الكونية.

ثيابٌ وعقالاتٌ وعباءاتٌ ولحى رزينة، وقراءةٌ إفتتاحية قرآنية عطرة، والأضواءُ تخفتُ والأصواتُ ترق، والكؤوسُ تُوزعُ وتتدفقُ في الأفواه والمجاري وتهزُ الجداولَ الصخريةَ والقصرُ يتقلقلُ، يرى الجارَ يتحولُ لشخوصٍ عدةٍ أحدهم يكلمه والثاني يضحك والثالث يبكي، وإذا بأجسادٍ رقيقةٍ ملائكيةٍ تحيطُ به، وتتخللُ أصابعُها لحيته الكثة، وتخففها وتجملها الموس، وتنهضُ على إيقاعات الغزلان وتتكشفُ أجسادُها الرقيقةُ النحيلة ذاتُ الصدورِ النافرة، والخصورِ الرقيقة، والمؤخراتِ الممتلئة، وتتدفقُ الزجاجاتُ والأطباقُ والسفراتُ الواسعةُ التي تتعذبُ فوقها الخرافُ الصغيرة البضةُ اللحم، وتسيلُ الدهونُ من بين الأصابع، والأميرُ يرتجل خطبة وآخرون يباركون له ختان ابنه.

هارون ينتبه. يحدق في المكان والآفاق الرملية والكثبان البشرية ويفزع: أين هو؟

يتطلعُ بذعرٍ لكائنٍ كأنه يعرفه، تهرسُ أصابعُهُ جلدَ المقعد. إنه ولده عثمان يهتز ويتثنى بين الراقصات يمسك أصابعهن البضة الملونة، ويقبلهن!

يحاول أن يخرج من الروح التي تلبسته، إنها تضغطُ عليه بقوة، وتدغدغه، فيبتسم بنشوة، ثم يغضبُ بآهة، يلمس الثوب الأبيض الحريري الناعم، أين منه ثوبه الذي هرب به من سجن طره؟ ذاك الذي توحَّدَ فيهِ الترابُ والناموسُ وفتات الخبز وما سُمي زيفاً بالشاي الأحمر؟

صوتٌ يهمس:(نعمةٌ اللهم زِدَها ولا تقضي عليها)، وصوتٌ يتفجر(أعوذُ باللهِ من غضب الله!)، يحاول أن يقوم بقوة وترفض ركبتاه الأوامر الصارمة، ويجرهُ قلبُهُ للمقعد الوثير الذي تزغردُ فيه ضلوعه، وتسترخي أليته وتتبرطح، لكن بضعةَ إبرٍ نارية تمشي في روحه، ويرى باصات شبرا المزدحمة والتي يتساقطُ منها البشرُ من الأبواب، هناك البشر الذين صاروا نملاً، أصواتُهم تأتيه من وراء الفلوات، فيقوم ولكنه يرى الكؤوسَ الممتلئةَ تترقرقُ بركةً واسعة، ويرى أصابعَهُ تخترقُ الترابَ لتناولِ السجائر ثم تأخذها من بين آثارِ الأحذية، والآن سيجار في علبة مذهبة تُقدمُ إليه! وترتعشُ يدُهُ بإمساكِ البيرة(ما كان كثيرهُ حرام فقليله..!)، ويجلسُ ويمسحُ الشاربَ الأبيضَ الجديد من على شفتيه وهو يبتسمُ بشغفٍ للصَبيةِ التي اقتربت منه، أطاحتْ به نظراتُها وملامحُها وصار فريسة، ووضَعتْ بين يده كلمة، وتحسسّت خده وكأن إصبعها أمسك تلابيب قلبه، ومضت وهي تجرُّ أذيالَ أجزائهِ المفتتة.

ينظرُ لرقمٍ فيخبأهُ بسرعةٍ في جيبه بفرحٍ صبي.

ويهتزُّ مرتعباً من الكأس الكبيرة التي فرغتْ وما زالت فقاقيعُهَا تتفجرُ مطلقةً أرواحاً في قعرِ الكأس!

(شارب الخمرة في النار!)، يتشجأ بلوعة، ويقوم بعزيمة أقوى،(لنكن على مذهب أبي حنيفة النعمان)[٧] ، ناظراً لكأسِ النبيذِ برجفة.

يتحسسُّ طريقَهُ الصعبَ؛ أجسادٌ كثيفةُ اللحمِ تتموجُ مضطربةً، تضربهُ ويكاد أن يعود لمقعده، ترتفع أيديها وتصرخ وتلقي الخضروات في وجوهِ بعضها البعض، ويرى الفجلَ يتكلم، والطماطمُ تتحولُ لشفاهٍ دامية، والخسُّ لمراوح في الأيدي، ويبحث عن ابنه، فيتحسسُّ الصخبَ البهيج الواسع المنعش، وتكاد الروحُ أن تدغدغه وتضمه للحشد المتثني المهتز، الذي يلقي بكوفياته في الهواء وتصيرُ كأنها طيورٌ تريدُ أن تحلق أو تهرب من فوق الرؤوس، ولكن أين الأجساد النسائية البضة من هؤلاء الممتلئين بالشحم ضحايا الخراف، الذين يهتزون على إيقاعات مرحة مدغدغة للجسد المنتفخ المتصلب الذي يكاد أن يغدو موجةَ جليدٍ منذ فجر التاريخ أو كثيباً من كثبان الطعوس وقد خلا العالم من الرياح؟

وعثر على ابنه عثمان يرضعُ من زجاجة كبيرة كأنه جاثم عند النبع، ولمسَهُ برفق فما تحرك، ثم هزه بقوة فأنتبه إليه، وأشرقَ وجهُهُ ثم تصلبَ بحدة!

(وما زالَ تشرابي الخمورَ ولذتي حتى تحامتني العشيرةُ كلُها وأفردتُ إفرادَ البعيرِ المعبدِ)[٨] ، تطلعَ إلى لجنةِ التأديب في الجماعة تتقدم نحوه، اللحى

(٧) يشيرُ لرأي الحنفية بجواز شرب النبيذ.

(٨) بيتٌ من معلقة طرفة بن العبد.

الكثة والثياب البسيطة المتواضعة في كرنفال البرازيل العربي، الأصابع تتجه نحوه كقضيبِ خبازٍ ساخن ينتزعُ قرصاً من التنور أحترقَ وتلقيهِ في برميل الخبز الأسود المتحطم والممزق.

سحبَ ابنَه، وتداخلا بين الجموع، وفجأة أمسك يده شخص مـــا، إنتبه فإذا الأميرُ بنفسهِ:

إلى أين يا أستاذ هارون، السهرة لم تبدأ بعد!؟

تعبتُ قليلاً يا سيدي.

لا زلتَ شاباً قوياً!

أشكركَ أطال اللهُ عمرك على هذا الكرم.

وطالعَهُ وهو ثلةٌ تتداخل وتفترق، تتكلم وتصمت، والجواري والعبيد وراءه، خرجَ مع ابنه وركبا السيارة، والابن يبتسم ويهمهم، وتحاوطـــت العربة مجموعة من العمال راحت تنظف الزجاج وتؤشر وتوقف ســـيارات أخرى، والرؤوس المألوفة تنحني والأيدي تقترب تمد أكفهـــا مـــن أجـــل إكرامية.

(٢٢)

(تؤممُ الشركةُ العربيةُ لقناة السويس، شركة مساهمة مـــصرية!)[٩]، حشودٌ وتدفق في الشوارع، وتشتعلُ نيرانٌ في الأبنيةِ ويَرى عمارةَ الصحيفة التي تسبُ ناصرَ في الخليج تتوهج، والصحفيون يخرجون منها مشتعلين.

---

[٩] من كلماتِ الرئيسِ جمال عبدالناصر

الأم الكهلة والصبية تآخذانه في سيارة الأجرة وهو متلحف بالأساطير والذكريات، السائق يبحث عن العنوان بين ماضي القناة وإهيار الحلم.

الجماهير تتدفق، وهو فوق الملايين تتحرك تمزق الخرائط اليابسة، الأساطيلُ تضربُ المدنَ، الطائراتُ تُترلُ المظليين والرصاص مطراً، وسكان حيه ينهمرون، وسيارته ترتفع فوق الأكتاف.

رسائلٌ من وراءِ البحر تترلُ على أصابعه المتوهجة، ثمة فتى اسمه ثامر يكتب بلغة حزينة من الخليج؛ (سيدي الزعيم الكبير مدينتنا إحترقت، وأبي سُجن وغابَ طويلاً). في بدلةِ الكهولة، يتطلعُ لذلك الصخب مذهولاً، كلماتُهُ تتدفق منه كرشاش، ووجهه يتسعُ على مدى الشاشة، والجريدة العربية في دار السينما والفتى يصفق بقوة حالما تظهر صورتُهُ، والناس تتدفق، تخرجُ من الحارات والأكواخ، وعروقُ الرقابِ نافرة، والأفواهُ غاضبةٌ ممتلئة بالقذائف، يكتبُ للفتى جواباً في نفسه، السطور تتجمد في ضميره(طريقنا أنتَ تدري شوكٌ ووعرٌ عسيرُ والموتُ على جانبيه لكننا سنسيرُ)[١٠] ، الولدُ صار رجلاً وهيكلاً عظمياً ومنشوراً في متحف يُرسلُ كلماته إليه.

---

[١٠] من أغنيةٍ سياسيةٍ بحرينية.

يتأملُ المدينةَ الشقيقة.

الشوارعُ الصحراويةُ فارغة، لم يظهر كثيرون على الأرصفة، فقط طلبة المدارس الذين أعطوهم إجازة وصفوهم له، وهم يلوحون بالإعلام، صبيةٌ في فصول الرجال الآليين المستقبليين، يختفون بصفارة، والقصرُ كان على إمتداد الشاطئ إلتهم المقبرة القريبة وبضعة أحياء وتمدد ووقف عند الصخور من كل جانب. والأمير سلمان يضعُ أمامه الخروفَ وحشدَ الأمراء المسئولين عن ظهورِ الفجر وحبوب الهلوسة والآبار، والجمهور يتدفق في ساحة القصر وفوقه سحابةُ العقالات السوداء.

يرسل له ثامرٌ الفتى الرجلُ الهيكلُ خطاباتٍ في أصداءِ الهواء: أحذرْ يا سيدي الرئيس إنهم يدبرون لك إغتيالاً، سوف يأتي لك تاجرٌ من بئر السبع، ويحضنك ويسربُ سماً في خلاياك.).

لكنه لم يمت. طلعَ من التابوت وأمُهُ تحملُ أجزاءَهُ لتدفنه، وابنة أخيه ترسمُ كلماتَهُ في الجهاز المحمول وتلغيها، تمضيان به إلى الحقول.

(يا جمالْ يا حبيبَ الملايين).

هو هنا لا يزالُ في الريف.

الأغنيةُ تترددُ في المذياع، والأرضُ خضراء واسعة، والرجالُ والنساءُ يملأونَ البطاح، والسماءُ نظيفةٌ حرة، وعبدالمقصود يحضنه ويعزمه وحرسُهُ يتدفق والحوش واسع، وقطعة الأرض والزغاريد ويرى ساعدَ أبيه وهو

يغوصُ في التربة منجلاً عَرِقاً، والشمسُ تقفُ فوق بساط البرسيم، والملابسُ الخضرُ تزغردُ وأمُهُ تطلعُ من وراء الأفق تحملُ سلةَ الزادِ وتعريشةُ الأشجارِ تحضنهم وعبدالمقصود يضحكُ بأسنانٍ قلةٍ في فراغٍ أسود، وإبراهيم منكسٌ رأسَهُ في الفرح العارم، وهارون غائب يبعثُ شتائمَهُ، تتساءل أمهُ أسماء عن سبب غضب هارون في اليوم البهيج، وقطعُ الأرضِ الصغيرة تنهالُ في أحضان الرجال.

أناسٌ نزلوا من المسلات، هياكلٌ ظهرتْ من الكثبان، أحاطتْ به في براحةِ المساء على الرمل المتوهج بجمر التاريخ، هو ببدلتهِ العسكرية الفقيرة ونجومُ السماءِ تنزلُ خيوطاً طويلةً متقطعةً من ضوء، عادتْ الأوراقُ إليه، الأراضي الممزقةُ من الأسواطِ عادتْ للضفاف، يتطلعُ لحشدِ الجماجم والعيون الخرز المضيئة في المياه النيلية:

خذوا الأرضَ!

هياكل عظميةٌ كثيفةٌ خرجتْ بثيابها الملونةِ من غابةِ المسلات والأكواخ والقصور، أخذوا أوراقاً، وظلت الأرضُ كما كانت موحدةً يأكلها العثُ.

الأرضُ تعودُ لدودِ القطن والبلهارسيا، وتظلُ الأغاني الحزينةُ المجدبةُ تنهمرُ من وراء الجدران والأسوار، ويعلو صوتُهُ أمام غابةِ الرؤوسِ في ملعبٍ مسورٍ بالنجوم، ساحباً إياها نحو القمح والروافد.

لا نريدُهَا!

ماذا أفعل بكم؟ لقد ركبتُ الخطرَ وجئتُ في سحابة نـــار وأنـــتم خائفون من لمسِ ترابكم؟

تتقدم أسماء فوق مسرح الأرض، تقول:

أنا مشيتُ وذهبت للريس ولدي وأخذتُ الأرض. لم أذهبْ استعينُ به في يوم من الأيام وهو ينثر الجنيهات في حضني وأنا أتركها للعيال. لكنني أخذتُ الأرض. كان أبو العيال قد قدمَ من الصحراءِ ومن غابـــةِ الـــشوك لتلمسَ أصابعَهُ قطعةً خضراء. سمع الكثير من الأغاني في المذياع لكن ثوبـــه تشقق وسِربُ الجِمالِ هرب أو بِيع أو سُرق. وبيتنا رُهن. مضيتُ لجَمـــال وهو في حشدِ الثياب النوبية والعباءات الصحراوية لشيوخ القبائل الفقـــراء الكرماء وتناولت تلك الورقة التي دارت وصارت أرضاً خضراء. التـــراب ينشق ويصير شجراً. يتسامر العنب والزيتون والرطب في الـــصيف الحـــار والشتاء الدافئ. وابني هارون يصرخ وتمطرُ السماءُ قصاصات ورق.

يتقدم هارون على مسرح الأرض بين هبوب الريح ومطـــر الـــورق الملون:

حرام يا أمي، حرام هذه الأرض المسروقة من أصحابها!

كيف، أقرأتَ هذا في الدين؟

نعم يا أمي والذنبُ عظيمٌ وجهنمُ تفتحُ أفواهَها للصوص والعسكر!

سآخذها يا ولدي، سآخذها، فرحتي عظيمة أن دم جدك المقتول يصير بذوراً وأغصاناً.

قوي حائطُ البيتِ، وجدتْ الطحينَ في متناول الأصابع العظمية والجافة والطالعة من الحفر، ورجالُ الحقل ونساؤه يأتون للبذرِ والحصاد، وأصحابُ الدكاكين يسجلون الديونَ في الدفاتر.

تمضي تتعكزُ على الحفيدة وقامتها تعتدل:

– لم أفهم لماذا يتحارب أولادي. صاروا كباراً، صاروا معلمين كلٌ في كاره، هارون يقول العسكر لصوص، ويهربُ إلى الصحراء ويحفر بئراً ويكتب إليّ تعالي، وأقول لجمال لماذا تكره أخاك؟ هارون حافظٌ للقرآن، البدو الآن يتعلمون على يديه، الحجاز الطاهر يتبرك به! يرد جمال إنهم يتآمرون عليّ يا أمي، سوف يشترون أرضكِ برخص التراب، لن تجدي طحيناً حين أغيب والعرائسُ سوف تشتعل رؤوسُها شيباً. أمضي لإبراهيم، هو مسكين في أغلب عمره، لم يأته الخير إلا حين عاد لأخيه هارون وصارا سمناً على ذباب.

– ثم تبخرتْ الأرض، وتحنط ولدي جمال بين آلات تشفط الدهون والسموم من جسده، بعضهم قال غاب، وبعضهم قال مات، وهجم علينا أصحاب الدكاكين والديون وأهل الحراسات ونتفوا ريشنا!

(٢٣)

تطيبُ الفودكا في بلدِ الثلج والحياة، يتأمل إبراهيم عين الكسندر المصابة في الحرب والأخرى تثقبُ الوجودَ، ويرفع كأسه ويهتف: من يشرب وحده يقرعُ كأسه مع الشيطان[١١] وهو يقرعُ الأبوابَ الجميلةَ وينام على أسِرة الأباطرة ويترل للميدان وينغمر بالحشود والرايات المنتصرة خلال سنين مضنية وهيجة، يسألهُ الكسندر عن عزلتهِ الغريبة، وإبتعاده عن أخيه الهَرمِ الكبير على أرض أفريقيا.

يسكبُ دماءهُ على الطاولة وفي ذاكرته ينظرُ الآخرُ لقوقعتهِ الصحراوية النارية، وتبخرَّ الرجالُ في الهواءِ واحداً بعد آخر، حتى لم يبق سوى ثلة إنحشرت في الدواوين، تستعملُ الحبوبَ لعودة ذكورة متيبسة، وتغني الأغاني القديمة، وتتذكر.

لم تفعلوا لنا أي شيء، تركتمونا نتعفن في الصحراء!

دعْ القلقَ وفّجرْ الحياة!

حين وصل المطار وضعوا القيودَ في يديه. العلاقاتُ مشوشةٌ بين النيل وبلاد الثلج. الضابطُ صفعَهُ بصور العبّارة البحرية والجثث تطفو على المياه ممزقة.

إحدى عبّارتك المسماة نسيم غرقتْ في البحر!

---

[١١] مَثَلٌ روسي.

يا إلهي!

أرسل له أخوه هارون تذكرةً وأسكنه في فسيح فنادقه، وكان الحَرمُ قريباً، والأذان يشعشعُ في الفجر، ونزلتْ عليه سحبٌ روحيةٌ منعشة، وبقي يشرب من فودكا مهربة، وتمضمضَّ جيداً، وأكلَ برتقالاً، وجلس مع هارون في اللوبي، الذي سأله ببراءة:

ألا تزال لا تصلي؟

نعم.

لماذا؟

تعرف الأسباب التي تكلمنا عنها قديماً.

حتى الآن والدنيا تغيرت بشكل هائل مذهل وهُزمت أفكاركم الصبيانية؟ هيا إستعدْ لنذهب لصلاة الظهر، وأنت في مكان مبروك طاهر!

كان أصحابُ البدلاتِ الزرقاء وذوي الهياكل اليابسة والأكف الحجرية ينهمرون على صحن الجامع، تترقرقُ الدموعُ في عيونهم وينحنون بخشوع أسطوري.

تأخذهُ الأسئلةُ من كل جانب، الخيالاتُ المسلحة، والبسطاءُ المقدسون، ذوو الخيوطِ المتصلة بالنور والنظافة الأزلية، جافى معابدهم، وأنغمرَ في عصبةٍ صغيرة عاشتْ في أصيص زجاحي، حتى إختنقتْ بالداخل وتكسرَّ الزجاجُ المستورد، وكان الحراسُ في الصحراءِ يستغربون خبو الأذان وغياب السجادات.

أشياءٌ هائلةٌ توقفتْ وتقلقلتْ في روحه ولم يجب عنها بيانٌ؛ أسئلةُ الجانِ الذي يعبرُ الأزمنةَ، والملائكةُ ذوات الريشِ والزغب، والكلامُ البسيط الجميل الذي يتجمد ويصبح طلقات، والنسوةُ المخدرات، والجسدُ الذكوري المختن الذي يُطلق بكل شهواته والنص الذي تحجر.

أعذرني لن أجيء.

إذن وقعْ عقدَ الشراكة بيني وبينك.

لكنه الآن في لظى بحر.

يُقاد لزنزانةٍ مليئة بالرجال. بالكاد يعثرُ على مربع قذر، هل كان أخوهُ يصنع له مصيدة؟ أم كان يفتح له أبواب الرزق؟ هو الذي أختار الربان والبحارة، وإشتغلت العبّارةُ ونقلت حجاجاً وركاباً وهاربين من جحيم الشرق.

لمسَ ترابَ الصحراء بذهول، هنا عبرَ الأجداد، هنا تكّون نسلُهم، وانحدروا إلى النيل بجوعِهم وشراهتهم للطعام والنساء والحقول.

في معزل الصحراء جمالٌ لم يحاكمهُ وتركَ حسابه مع العقارب، هنا في سجنِ الأعداء مثّلَ بين القضاةِ والمحامين، وأخوه أرسل أموالاً من طعوسِ الزيت.

لم تعرفْ بدقة هذا الربانَ المهمل.

لم تطلعْ على العبّارة الرثة.

غامرتَ بالناس.

أناسٌ مجهولون يتبنون موقفَهُ وهو مغمورٌ بورق نقدي زالت قيمتُهُ مع الجثثِ المأكولة من سمك القرش.

أخوه هارون صارتْ له صحيفةٌ وتحولَ ربانُ السفينةِ إلى شيطانٍ وأُعدم.

الفيلا طارتْ مرة أخرى، وعادت فاطمة للشقة والعصا.

في السجن المليءِ برثاثِ الخلق لمسَّ الهياكلَ المحطمة، الزميل الذي إبتعد طويلاً، الشاب الوسيم كيف تحول لوجه بشع وعينين متضخمتين وحاجبان مظلتان ويحتضن ولداً كريهاً ويقبلهُ ويتعاركُ مع الزملاء وفي كل لحظة يصرخ بألفاظ بذيئة وفي سويداء قلبهِ اللحنُ القديم. كان أشبه بقصيدةِ شعر، يتلمسُ الكتبَ برهافة، من الذي أسقطهُ في بئرِ الحياتِ والهوام؟ والرفيقُ الذي خرجَ غاضباً على كل شيء نُصبَ له كمينٌ لنقود زائفة. ومنافسهُ على القيادة المركزيةِ غدا وزيراً صاحب عمولات كبيرة. فهل كان هو أفضل من هذا الحطام؟

السفينةُ ذاتُ الألواح تطفو على وجهِ الغمر. فيها من كلِ زوجٍ قتيلان والجثثُ المأكولةُ تمشي نحو الآخرة. ثلاثةُ أولادٍ لم يجدوا لهم رؤوساً وصاروا يتكلمون.

يجثمُ في الشقةِ ظلالاً.

جمالٌ وحده يمكن أن يغفر له، يمكن أن يفهمه. لكن جمـــالاً نـــائم، يتصل بالعالم عبر خطوطٍ كهربائية وأجهزةٍ معقدة وسوائل تأتي من خيوط ويراسلُ الأرواحَ من خيمةِ الأوكسجين.

محمودٌ يحيط به، كوّنَ قلعةً حوله، واللصوصُ في كل مكان.

لم يجد سوى هارون يتصلُ به، وشوشةُ الهاتفِ على هذا المدى البعيد وكأنه يسمعُ غررة نارجيلة وهمس بشر أو سير الإبل في حـــداء تـــاريخي فاشل.

وجد صوتَ أخيه هو نفسه متألم. صرخَ: النقود أعمت عيوننا!

وقال:

– بدلاً من هؤلاء المحامين ذوي الأتعاب الكبيرة كان الأفـــضل أن تـــدفع لعائلات الضحايا!

(٢٤)

أنهتْ مريم تجربةَ الرقص ومضتْ للقاعة تشربُ قهوة.

لم تكبرْ رغم هذه الخطوط السحرية التي تتوغلُ في وجهها مرسلةً من كائنٍ شرير، تضربُ الشيخوخةَ المتسللة إلى روحها، الإوبرا تحترق، المجلاتُ الجميلةُ تُدفن، أميرٌ ييأس ويغني ببلادةٍ ويوزع أشرطةً كثيرة ويـــصير لـــه معجبات كثيرات يتقيأنَّ على تاريخه.

مع صاحبتها تدندنان على معزوفة الماضي:

أين ذهبتْ الإسطواناتُ الجميلة؟ لماذا الحضور قليل دائماً والأذواق في الخارج تنتحر؟

لا تزالُ الأفلامُ القديمة ساحرة.

لكن ثمة شباباً جريئاً يجرب ويطير في السماء.

رن الهاتف وجاءَ صوتٌ غريب:

أنا عثمان بن هارون ابن عمك!

ابن عمي من أين؟

من بلاد الخير، أريدُ أن أراكِ، أن ألتقي بأحدٍ من العائلة. كيف نحنُ أقرباء ولا نعرفُ بعضاً؟!

شهقتْ ونزفتْ عدةَ أفلام، وتفجرَ الاسمُ في عينيها، ورأتْ السحالى البريةَ تمشي إلى أزهارِ اللوتس.

ماذا يريدُ منها عثمان بن هارون ابنُ العم صاحب الشركات الجديدة الغريبة؟

الليلُ باردٌ والأشجارُ مثقلةٌ بالندى والدموعِ والدخان والأضواء تتلألئ وحشودُ العَربيات تتصارعُ على بوصاتِ السير، لم يعدْ لها في الحساب شيء كبير، والمخرجون ذهبوا للوجوهِ الشابة الناعمة المليئة بالتغريد وتركوا التجاربَ الكبيرةَ تحدقُ في حشراتِ الظلمة. ترى جلساتٍ كثيفةً للوجوهِ الجائعةِ القادمة من مدن الزيت، صنعتْ خياماً شوكيةً في

قلب المدينة حتى غرقتْ السيمفونياتُ والبجعُ في النهر، والشقوقُ الـشقيقةُ الكبيرةُ حاصرتَها فنزلتْ للأداورِ السفلى، وتعودُ في الليالي للضوءِ والورق والموسيقى التي تترفُ بشراً يذوبون ويهاجرون ويرفعون أكفَهم بعلامـاتِ النصر في عمق النهر، وها هو الفندقُ عملاقٌ متبعجُ الجسمِ يقفُ فوق الماءِ والحجر، ويغدقُ الأضواءَ على النملِ البشري المتسللِ لمسامه.

من سيهتم بالمرأة البسيطة ذات المكياج المتواضع والفستان الليلـي الخامد النجوم؟

الثللُ الشبابيةُ تحتلُ الردهات والقاعات تشربُ وتعزفُ وتتغلغـلُ في الأجهزةِ المضيئة، ويظهرُ عثمان في جناحه ومشاهدُ النيلِ والأنوار والنجوم خلفه تسجدُ للريال، يسلمُ عليها برحابةِ صدرٍ متحضرة والشاربُ الـدقيقُ في الوجه الشحمي الممتلئ بالكثبان خطٌ ملاحي في بحرٍ بشري غريق.

السلاماتُ ونبشُ الذكرياتِ وعلو المقامـاتِ لا تنـومُ الحيـاتَ في صدرها.

يقتربُ أكثر منها، يحدق فيها بشكل غريب. تعرف شهوات الرجال في الخانة المقرفة.

أي جمالٍ هذا؟ أي سحر؟ ورقصك، رقصك يأسر أي رجل!

تذكرتْ العمَ جمالاً.

ليست لي سوى مشاهد نادرة لرقص .. محتشم.

يضغط على أجهزة وأزرة فتظهر شاشةٌ كبيرةٌ وهي تتحركُ بغـــنجٍ مثير. لقطةٌ صغيرةٌ جنسية في فيلم سياسي.

أهذه مقابلة ولقاء بين أسرة؟!

أشربي، لا أظنك تكرهين النبيذَ الأحمر!

ما هذا أنتَ تعرف عني أشياء كثيرة، هل كنتَ تدرس سيرةَ حياتي؟

عشقتُ القريبةَ الفاتنة الشهية، بودي لو نكون أسرة حقيقية. كـــلُ ليلةِ جوعٍ في الصحراء أنامُ معك!

هل هي تسمع زغاريد زمنِ جمال والبناة يرفعـــون الطـــوبَ علـــى أكتافِهم ويمشون للسدودِ أم ترى القوافلَ قادمةً تحملُ الجواري؟ أهذا زمن هارون الرشيد أم زمنُ بابِ الحديد؟

هل تصيرُ حَاجةً وراء فاترينة سوداء رافعةً رصيدها المزلزل ومنقـــذة إياه عن الدفع والحجز؟

هل يلتقطها عثمان ابنُ عمها من بين صورِ الضحايا والولايا إلى عالمِ الستر، يضعُ صورَها في الصفحات الأولى وخبر جديد مدو عن إنتـــصار الفضيلة والحجابِ وأفواهٌ كثيرة تضحك؟

ألا يمكن الاستفادة من هذه الفرصة الثمينة؟

ما الفرق بين شَعر حاسر ومغطى؟

– ما هي قضيتك؟ ماذا تريد مني حقيقة؟!

تخرجُ من عنده للهواء البارد المنعش، تجلسُ في حانةٍ مفتوحةٍ من جهات عدة للخروق السماوية، الحطبُ مشروخٌ ومتعدد والسماء تُرى، والهواء البارد يتسلل.

يجري عثمان وراءها، أبناؤه يركضون إلى الحانات، بدلاتهم غريبة وشعرهم زيتي لامع كأنهم بنات جذابات، يدخنون ويشربون، يقول لها إنه مستعد لسترها بأي شكل ترضاه، سوف يدخلها في زريبة ذهبية واسعة، فتصافحه ضاحكةً وهو يقبلها على خدها وهي تبعد شارب الصقر الجارح، وتمضي لملكوت الشباب المرح، أصابعُهُ تغزلُ ضوءً وتحل كلمات متقاطعة عويصة في الحواري.

(٢٥)

ما هذا النور الطالع يا مريم؟ الشقة كلها مليئة به، تترنمُ العصافير، وتترقرقُ الأمواج، والفتية الصاخبون يحضنونك في زفةِ عرسٍ كبرى، الميادين تشدو معاً، القافلة البدوية السائرة على الرمال الأمواج أناختْ عند الأرصفة.

قال لك سمير: أنت حبي أيتها الكهلة الشابة الراقصة، تدورين في سيمفونية منذ الأبد، وهذا هو فراش عرسنا، رشيق، وسيم، طائرٌ شعري، يبثُ قصائدَهُ في المسارح العتيقة فهجرهُ الناسُ لزفةٍ يُنثرُ فيها العيشُ، طال إنتظارُه في الحانة ذات السقوف الخشبية المهترئة، حتى هلّ الندى، وجلستِ

بقربه، وسمعكِ تضربين الأصابع البلاستيكية الرقيقة وتصفرين بشفتيك الصغيرتين الجمليتين، وقال لكِ تعالي يا مريم نذهب لقصر البارون العتيق نرممُهُ ونمسرحُه، وطالعكِ المهندس والمخرج والقديس وقالوا من أحضرت يا سمير؟ أممثلةٌ لإعادة تكوين هذا القصر التاريخي شاهد الحملة الحضارية؟

وتصاعدت السلالمُ والنقوشُ والأصباغ والأكسسورات والطوب وطارت الحمامةُ النيليةُ بين ورق الشجر الباريسي تصدح بالمرسيليز، هفهف البياضُ في الزرقة، والأحمرُ إنكبَّ على الأرصفة، وسمعتْ صرخاتَ الشبابِ تكّونُ النشيدَ، وطارت الحمامةُ تجمعُ خيوطَ الركاب المفتتين في المياه، وعظامَ الجنود الذائبين في الرمال، وتضعُ الأشلاءَ والأنواء على طاولةِ الأب إبراهيم الصامتِ المفكر في المقهى الخالي من الرفاق.

يصفق الخواجات والكُتابُ لهما ويتحول القصرُ للسكن والحفلات الباذخة والعشاءاتِ الفخمة تصلصلُ كؤوسُ النبيذِ للسفراءِ والوزراء، وهما يمضيان ينشدان فوق الأرصفة، بيانو صغير يضربُ الجموعَ النائمة، والحمامةُ تحلقُ، في الزمالك وبابِ الخَلق.

يقدم لها خامةً من شِعرٍ وعنبرٍ ويسأل:

هل تتزوجينني؟

يا لك من ولد صغير، أتتزوج أمك؟

ولماذا لا؟

إنتهتْ الأسئلةُ، وجاءتْ الفواتير وأرغفةُ العَيش المبللة بالتراب والدموع والشهوة، وقصَصَتْ الرياحُ أجنحةَ العصافير، والراقصةُ المنشدةُ المليئة البطن تغوصُ بين حراشفِ السمك وتمزقِ الكراسي، تسمعُ المواويل والكنشرتو من الصالةِ والولدُ الصغيرُ يحبُ أمَه الأخرى، ويترلُ للميادين المليئة بالبشر، الذين صنعوا حمامةً كبيرةً تمتدُ من أسوان حتى الفجر، والرصاصُ ينهمرُ، والغيومُ تلدُ الأنواء، وجمالٌ حاضرٌ غائبٌ ومحمود يدير السفينة في الأمواج العاتية، السفينةُ الغارقةُ في مياهِ النيل، والسَلف، والدخان.

تضعُ اللفةَ الحمراءَ بين يدي أبيها إبراهيم:

هذا ابني، سمير إختفى بين الجموع، لعله سُجن أو مات!

لم أصدق، أنت تلدين بهذه السرعة الضوئية وأنا جاثم عند المقهى.

الحشود تملأُ الشوارعَ وأنت تراقب الدخان؟

كبرنا يا ابنتي. السكر وضربات الزهايمر الغريبة، وأشباح الغرقى وخناقات الصحراء، تصوري إنني ذهبتُ أطرقُ بابَ أحد الرفاق وقد رحل منذ زمن، ثم زرتُ مصنعنا القديم رأيت أجيالاً جديدة، موجاتٌ كثيفة من الشباب الصغار. كانوا ينظفون الأحواش والعنابر. قلتُ لهم أعملوا وسيرى اللهُ عملكم. لم يسمعني أحد.

خذ يا أبي ياسين لدقيقة سوف أشتري علبة سجائر.

ما هذه الأصوات القوية؟

الجموعُ بعيدة ولكن الصراخ في كل مكان.

تدخلُ المحلَ فيحيط بها العسكرُ والعصي والرؤوسُ والشباب والدخان. السلعُ تشتبكُ مع النقود والدم. يصرخ الشرطي فيها وفي لباسه: هذه مومس أعرفُها من الأفلام صارت تشارك المشاغبين!

غمامة كبيرة مشعة فيها غيوم كثيفة بارقةٌ، جلودٌ رقيقة إستوتْ على العرش فجأة، أفواهٌ صغيرةٌ تغني وتملأُ الساحاتَ والسماوات، بجعٌ بيضاءُ تطير والرصاصُ يتبعها ويرديها قتيلةً على الأرصفة.

مريم تتطلعُ إلى الشارع وهي في سيارة البوكس، إلى المقهى حيث تركتْ فلذةَ كبدها، هل سيتركهُ الأب على المقعد وينسى؟ كلما مرت عليه في المقهى رأته يحلُّ الكلمات المتقاطعة ويسأل: ما اسم المركب الذي غرق بالعابرين الضائعين من البراري والمدن العربية؟ ما اسم السجن الذي أنشأتهُ حكومةُ الثورةِ للثوريين؟ ما اسم الحزب المناضل الذي.. الآن ربما يسألُ المارةَ: طفلٌ من هذا؟ ثمة امرأةٌ ملعونةٌ جاءتْ ووضعتْ ابنَها في حضني، كل يوم أرى سلةً فيها طفل.

راحتْ مريم تصرخُ بقوةٍ على السائق والشباب الذي التفَّ عليها، وراح يهدأها:

سوف يرعاه جده!

سوف يأخذهُ للبيت.

وهي ملتاعةٌ يعذبُها الشرطي الكهلُ وينظرُ لفرجها، ويحكهُ بعودٍ شائكٍ ويضحك ويصرخ، ويسأل:

أي تنظيمٍ دفعَ لكِ؟

تمتدُّ يداها مسلسلتين في الجدار، والمنشورات كثيرة كثيفة تلك التي كتبها سمير ووزعتها الحماماتُ في الكفور والنجود، الكهلُ السجانُ يسألُ: ما اسمُ ابنك؟ ياسين؟ ياسين والعذاب المهين، إنا فقدناهُ في جمعٍ لعين.

تُحولُ قشورَ البرتقال لرسائل، والجثثُ تتدفقُ وراء الجدران، الشبابُ الجميلُ العازفُ على أضواء البيانو الصادح بالصراخ، تُوضعُ عليه بياضاتٌ ويذهبُ للمغسلة والشواهد الضائعة في البراري وإلى أقدام الحواري حيث الندابات أختفين وظهرت الأمهات المزغردات يشققن الأعلامَ ويستبدلنها برايات الدم والغضب.

(٢٦)

يعودُ هارون إلى قاهرةِ المعز عزيزاً.

مضى شرخُ الشبابِ واللمة السوداءُ وبان البياضُ وأخاديدُ الوجه المضاء بزيتِ الأغنام.

حشودٌ من الأصحاب والأخوة وكأنه يمشي على السحاب، يركع ركعتين بصعوبة وحبوب الضغط الصغيرة تتساقط، يركبُ في سيارته الفخمةِ السوداء، يرفعُ يديه تحيةً للجمهور، ويطالع أين أختفى جمال وحشرَتُهُ الآياتُ؟

محلاتُ الفول والصرافات الصغيرة والدكاكين والعمارات الكبيرة الفارغة من الخلو والشقق الثمينة تطيرُ للعائدين والنيل تحت الأبصار بدلاً من رمل الصحراء اليومي المنبث في العيون، واللحى غزيرة والسجادات كثيرة، والصلوات غزيرة، فأحمد ربك على نعمةِ الانتصار.

((يَخرجُ منهما اللُّؤلؤُ والمَرجانُ فبأي آلاءِ ربِّكُمَا تُكذبانِ))[١٢]، ركعتان صعبتان في أرض المطار كادت أن تكشف علله للأخوة المنافسين، والشباب كثيرون والزعماء كثيرون، ازدادت أمراضُهُ والأكلاتُ كلها تقريباً ممنوعة، والجسدُ توقفَ عن الشهوة، والعماراتُ والأراضي كثيرةٌ لكنها للأولاد، والوقوفُ متعبٌ لكلِ هذه السلامات والتذكرات والذكريات.

لم يصدق إن هذا هو ابنه حسن وهذا هو بيتُهُ العتيق الذي طالما حَلِمَ به. سمعَ عنه، ولكن لم يتوقع أن يكون كأنه متحفٌ مليءٌ بالمُنكرات، وقف شعرُهُ لكلِ هذه الصورِ الخليعة المحفورة في الحجر، والتماثيلُ منصوبةٌ في الحوشِ الواسع، والبركةُ زرقاء تمتدُ تملأها أفواهُ الأصنام، وثمة صنمٌ لامرأةٍ فاتنة، كيفَ تَلمّسَ كلَ هذا الجمال!

ماذا فعلت يا حسن ببيتي؟ أي فسوق وأي منكرات هذه؟

ياه أنت عشتَ عقوداً في العربية الصحراوية .. ثمة فرق هائل!

---

[١٢] من سورةِ الرحمن، الآيتان ٢٢ و٢٣.

وما هذا اللباس الذي تلبسُهُ وما هذه الصناديق من الزجاجات المحرمة. أين عثمان؟ تعالْ يا عثمان، طالعْ كل هذه البلاوي الذي عملها أخوك في بيتي!

عثمان يتقدم بهيئة حرباوية؛ هدوءٌ وأسى وشبح إبتسامة، يقول:

لك شقة واسعة قريبة من المقر. ثم أن هذا البيتَ مشوشُ الملكية، جمالٌ كتبهُ باسم حسن. عمنا المشاغب لا تزال بصماتُهُ في كل مكان.

بيتي هذا! تاريخي يُمسخ هكذا؟ لو جاء المصورون والتقطوا صوراً في هذا .. الماخور، ماذا يكون موقفي، لدي مسئوليات تاريخية، ثم أنني تعب، أريدُ أن أستريح!

ثمة غرفٌ واسعة كثيرة هنا. غطوا هذه التماثيلَ المنكرةَ يا رجال! ضعوا ستائرَ على الجدران.

يضحك عثمان مع حسن ويكتما ضحكاتهما وهارون يمشي ببطء، مطالعاً البِركةَ والكراسي والحشائشَ والشجرَ والثمرَ ويغمغم:(شيءٌ يردُ الروح، ياه لأيام الرياض التي لم تكن فيها سوى العباءات السوداء والحصى وأكل الحبوب والتلفزيون الأسود والأبيض!).

يجلسُ في حجرةٍ تطل على الشجر والماء، النوافذُ باتساعِ الجدران، والثلاجةُ قربَ الرأسِ، واليدِ، والمنكرُ كثيرٌ، والزهرُ يتثاءبُ وراء الزجاج ويمدُ أنفاسَهُ إليه، والجرسُ يُحضرُ خادمةً جميلة ذات تنورة قصيرة، يظهرُ

فخذاها الممتلئان البضان، وهي تهمسُ:(نعم سيدي!)، ويصيحُ بها(تغطي يا آنسة!)، ترقرقتْ لغتُهُ قليلاً، وراحتْ تحضرُ له الماءَ والدواء، والطعامَ، ثم قامت بالمساج له، وظهرُهُ المليءُ بالكثبان الجزيريةِ والهواتِ والمنخفضات الذكورية التعبة يستقيمُ قليلاً، وينهضُ منذ الصباح ليؤدي الصلاةَ ويمشي في الفسحات الطويلة، ويجلسُ على طاولةٍ خضراء تتدفقُ عليها أصنافُ الطعام، والماءُ يثرثرُ قربه، والعصافيرُ ليست من بلاستك ورمل، والجرائدُ الساخنةُ تضعَهُ بين سطورِ الشوارعِ المتدفقة، وتتفجرُ كلماتُ الأخوة، وتتدفقُ المهماتُ والرسائلُ والتبرعات والصلوات.

ويَحضرُ أجانبٌ بعدساتِهم وآلاتِهم، وتُرفع الأحجبةُ عن التماثيل، وتظهرُ الجدرانُ ذاتُ الرسومِ الخلابة، التي يتمعنُّ فيها المصورون بإعجاب:

ماذا تقول في الرئيس محمود؟ ألم يكن أفضل من الجثةِ الحيةِ جمال؟

بالتأكيد ولكن ضغوطه مستمرة على الجماعة والناس، والهواء مخنوق، والعيونُ تأكلُ السطورَ والخلايا.

تضمهم جلسةٌ عائلية، ابناؤهُ يعزفون في كلِ دقيقةٍ على الهواتف النقالة، فتطيرُ سطوحٌ وتسقط أبنيةٌ رثةٌ ويحترقُ حمامٌ في السماء وتظهرُ فنادقٌ صغيرةٌ محتشمة عائليةٌ تبيعُ المشروبات سراً والحشيشَ جهراً، وتتكاثر محلاتُ الأحجبةِ والعباءات.

يخطبُ في وجهِ ابنه حسن:

أنظرْ ما تفعلُهُ الرسالاتُ الكبيرةُ وأنظـرْ للتماثيـل المتـضخمةِ في الشوارع الشرقيةِ الملحدةِ كيف تساقطت؟ لم تقم سوى بزيارة واحـدة لي وأنا في المنفى!

كدتُ أموتُ حينها. كيف يمكن لي أن أحفر من أجل تماثيل هناك؟ دفنتني الجبالُ الرمليةُ المتحركة، ولولا العمال لمتُ إختناقاً ومللاً.

أهذا هو نتاجك؟ تماثيلٌ عاريةٌ ولوحاتٌ غيرُ أخلاقية، ماذا فعلـتَ بنفسك؟

أتريد أن أحطمها؟ سوف يقولون عادَ ليخرب النهضة!؟

لا! لا تفعل ذلك، لسنا أعداء الحضارة كما تزعمون، ولكـن إذا بليتم فأستتروا!

(٢٧)

جاءَهُ موسى رمزاً. غمروُهُ في النيل حينما كان صبياً وصارَ هاذياً.

تحسسُّهُ فوجدهُ حياً.

ماذا بك يا إبراهيم؟ ما بكَ متخشب؟

من أنت؟

أنسيتَ أخاك أيضاً، وهذا الصبي لا تعرفُ اسمَه؟

ياسين ابن مريم وسمير.

يا للطفل الصامت، هل هو أخرس؟

ثمة مرضٌ به.

لماذا لا تذهب للشوارع المليئة؟ طوفانٌ من البشر يُغيرُ، وأنت جاثمٌ في هذه الشقة الترابية. أنظرْ للحشودِ تأكلُ الذئابَ والخوف.

هَرمتُ وتعبتُ، وما أستطعتُ أن أصنعَ نملةً تتحرك. زوجة عمياء، وابنٌ مدمن على القهوة والقات، وابن متدين ساخر، وآخر مختفٍ وابنة ضاعت في الرقص.

ليس مختف بل كان قتيلاً.

لماذا يُقتل لمجرد الاستعراض بالعصي؟ أي فوضى وعبث لهذا الوجود. لو كان هنا.. أنظرْ ما هي الاحتمالات الجميلة لعيشه؟ هذا وحده يؤكدُ عبث الحياة..

بل حكم المسعورين!

أنها مجرد ألعاب من كبار يخلطون فيها الحياة بالموت. وهذه ابنة متوارية وراء الأسوار أيضاً!

أنتم لم تفهموا الوجود، أنتم بعدتم عن النهر والناس والأنبياء.

لم أقتربْ من مصانعهم وخزائنهم. كنتُ وجمال نصنعُ كلَ شيء، إفترقنا وأغتربنا.

أذهبْ إليه في غيبته الصغرى.

إنه يتقمصني حينما يريدُ العودة للحياة في كل هذه الفوضى!

(٢٨)

من هذا الملتحي المصلوب في الكهف؟

مريم تفتحُ ذاكرتَها بكلِ نارها.

أحمس القادمُ من الصحراءِ والذي مضى للقناةِ فيما الضباطُ السِمان يهربون للفلل والمزارع، وكّونَ من البنادق الساقطة ومن الجثثِ التي لا تزال تمسكُ المدافعَ وهي في الرمال والتلال مقاتلين، ومن أصابع الديناميت فخاخَ شوارع تلتهبُ تحت أقدام المتسللين للغيطان.

كلما طالتْ لحيتُهُ حتى تصل صدره يحرقونها بولاعاتِهم. والحريقُ يلهبُ وجهَهُ، وذاك الذي سماه عمُها هارون أمجدَ ظل يغزو ويطاردُ الصلبانَ، ثم يؤذي أخوته.

أنزلتهُ من على الهلال الدامي، قبلتْ جراحَهُ، داوتْ الحفرَ التي نزلتْ فيها الدباباتُ، سرحتْ شعرَه.

ضمها إلى صدره، كتمَّ أنفاسها ساعة، وبكى ساعةً أخرى، وأحتضنها شغفاً، ورأى كمَّ المغتصبين الذين عبروها وحولوها إلى أرشيف مخبرين وخريطة مجلودين، ومشيا في الظلال والحقول، والأنوارُ الوحشيةُ تدورُ باحثةً عن عصافير في السماء، تتساقطُ عليهما الوطاويطُ محروقةً، يترنحُ أحمس مراراً، ويكلم البرديات رمزاً، وتعلو مريم الأشجار، تسقيها العصافيرُ حليباً، يحاذيان النهر، والبرسيم، ويأكلان الجرادَ، ويختبئان في

الكوخ، والعُمدُ يسألون كلَ عابرٍ عن اسمه، ويدخلون تضاريسَهُ ويطلقون البرقيات للأضواء النارية الباحثة عن حمامٍ وغمام.

لماذا صرتِ هكذا؟ ترقصين وتغنين وتنجبين من كافر؟

دخلتْ النملُ في أعضائي، الأباليس نشروا الأسربة في طريقي، حتى رأيت حشدَ الرجال يمر بين ساقي فندمتُ على كل ما مضى. كل تلك السيمفونيات لم تدخلْ حارة.

وهل سمعتِ خبراً عن ابنك؟

هو في أمان لدى جده.

جده كافر مثلهم.

تعذبَ مثلنا وقد قُتل أخونا ففقد عقله.

جنّ حين راح يبيع ويشتري في لحمِ الحجاج.

لا تتكلم بما لا تعرف!

فلاحان كهلان يجمعان الرطبَ المتساقط ويبيعانه، ويتسللان لسهراتِ الرجالِ والنساء بعد ضنى الحقول، يوزعان الورق، يراقبان السياحَ في العّبارات النيليةِ الممتلئة بالفسق، يقتربُ أحمس بشعلةٍ من كنيسة ويوقد فيها النار، ترى وجوهَه في البراري والصيادين الآكلين للحم البشري، يضعُ النسوةَ في الحفرِ والكهوف، يصرخ:

أرى عروقكِ ترقصُ للموسيقى، وتهتزين حلماً منذ أن يظهر سمير في الورق وعلى الشاشة، تودين العودة للإوبرا والمبغى؟

من قال لك أن السحرَ كفر؟ دعْ عنك حرقَ الصلبان والأغنيات، طالعْ النجومَ ذات الأنياب التي شوتنا.

لم يعد طليقك يهتم إلا بإنقاذ جلده.

تهربُ، تتوغلُ في الجموع الهادرة، تدخلُ تضاريسَ الحارات الكثيرة، تختلطُ بنسوةٍ إستشهدنَّ في حقول الشوك، وهو يجري وراءها يتتبعُ ظلالَها وأنفاسها، يحبسُها مرة، ويحبها مرات، يحرقُ أشرطتَها القديمة في محلات الفيديو، يحبسها في قبو، ويُدخل عليها الأكلَ من فرجة صغيرة، والمكان يتسمم.

تضعُ يدَها على خده فتدخل كهفاً. إطلاقُ النارِ يتردد في العراء.

يمضيان معاً لقلبِ المدينة، تبدلتْ اسماءهما وثيابهما، ووضعا أجهزةً تتصلُ بالملكوت.

الشبابُ الغنج الحلو ذو الثيابِ الغريبة، والتسريحات الأنثوية، الذي يدخنُ للرجولة، يقامرُ بالصوت والصورة، ويتغلغل في الحشود.

مريم تفتح في الصباح وأحمس يغزو الليل، يصنعان القهوة والشاي، ويجلبان الكعك، لم يبق في جلدها مكانٌ للمعةِ زهرة، والحجابُ الحاجزُ يبعثُ ضوءاً شديداً، تضعُ موقعاً للصعاليك، تنتشرُ فيه الكلماتُ والأعضاء،

والموقعُ يتحركُ يهزُّ ألفَ ليلة وليلة، ويعري هارون الرشيد من عباءة الزيف الفقيرة، وحوريس لا ينادي أوزريس، ويضعُ صـــورَ العـــشاق لـــلأرض والشوارع والميادين.

المخبرون يشربون الشاي ويرون صورتيهما في قعر الفناجين السوداء ويرسلانها للمركز، يطبقُ الحشدُ على كائنات أخرى.

(٢٩)

جمال نائم، يرى في أجملِ كوابيسه محموداً يحضنهُ ويعصرهُ ويخنقه، يدٌ تهزه، يتدحرجُ في التاريخ والقبر، ينهضُ فزعاً، يرى كائناً متلفعاً بالضبابِ والدخان، ووراءهُ حشائش وبومات.

يقتربُ بجذعه، يحدق، يرتجف:

أخي إبراهيم؟

يرى الصوتَ عبر حنجرةِ أبي الهول:

نعم أخوك!

كيف جئتَ إلى العالم الآخر، إلى عالمِ الأرواح والضباب؟ أعـــرفُ إنك لم تمتْ بعد ولكنك تعيشُ ميتاً؟!

ذكرى أخذت بيدي. أمنا أسماء ماتتْ، ومشتْ ذكرى بها لعـــالمِ البقاء الأبدي.

أأمي ماتت؟ آه بدون أن تزورني لآخر مرة، بدون أن تصفح عني!

كانت تعيشُ في خلايانا.

أجلْ أذكرُ حين تحدثُ أية قرارات رهيبة تقفز من الظلمة وتصرخ في وجهي.

لا أقصد هذا. لكن قلْ ألم تفتقدني؟ ألم تشعر بخوائك بدوني؟ التوأمان اللذان إنشقا وضاعا عن بعض؟

أنا مجردُ شبح هنا، أحترقُ كلَ يوم وأنا أرى شعبي يُخطف. هارون ذلك الحرامي صار يدوسُ على أعمالي وإنجازاتي العظيمة.

أمسكهُ من يده، اليدُ إمتدتْ عبر عقود، بين الورقِ الطائرِ المحترق، المليءِ بدمٍ منبثقٍ من خلايا مجلودة، أمسكتْ يداً صلدةً بدتْ كأنها عظام مجردة، أو طيف، أخذهُ من الكهفِ والعتمة، إلى الأرض الصحراء الجرداء، العَطِشةِ لشفاهِ النيل، رأى كم هو يشبهه.

صاحَ جمال:

ماذا تريد مني بعد أن فعلتَ ما فعلت؟

أنت الذي أحرقتَ المراكب، وجعلتَ الأخوة تغرق!

كنت تتآمرُ على شخصي. أنا الفريد في هذا الزمن العقيم! أنظرْ للملايين تصرخ باسمي!

لا أسمعُ أحداً!

قلْ لي ماذا تريد؟ ماذا تريدُ إن لم يكن لديك شيء فسوف أرجعُ لكهفي وأراقبُ الأنذالَ ماذا يفعلون في شعبي!

لا أعرفُ ماذا أريد.

جلسَ على الأرض الحصباء المؤلمة، رأى مستنقعات بعيدة تفور، أشباحاً تمشي وتتساقط، لافتاتٍ مرفوعةً وأذرعاً تتقطع وتسقط وأجساماً تنصهرُ في المياه الحارقة التي تغلي.

لا أعرف ماذا أريد؟ ولماذا جئتُ إلى هنا؟ ذكّرني يا جمال، كنتَ ذاكرتي ونبضي، حتى خطفك الرعدُ السماوي المجنح!

وهل أنا فاض لك؟ ولذاكرتك الخربة؟ أين نعيمة تدغدغها أين أحمد كاتبُ السيرِ الذي لم يكتب عن عمهِ حرفاً، وأين صاحبُ الكيفِ والقات؟

أهذا هو إرثنا؟ أنت لديك ابنك عبدالحميد العاشق لموديلات السيارات بعد أن يحولها لخردة يبيعها أو يحرقها، ولديك ابنتك التائهة في أضابير التاريخ، دخلتْ الملفات و لم تخرج!

كيف جاءَ كل هؤلاء المعوقين؟

أسألْ نفسك!

بل أسألْ أنت نفسكَ وكيف ضعتَ في الكتب الأجنبية، ألم أحذرك؟

كانت نفحاتٌ من ضياء عظيم، شيء جديد يتكون في العالم!

أسكتْ أنت الآن قرب جهنم!

أنتَ الذي أضعتَنا بجلاديك وخزائنك!

أخرسْ!

تماسكا بالأيدي، راح جمال يخنقه، يكاد، والآخر يسعل بشدة، وهو يتألم من ظهره وتخور يداه، ويحضن أخاه بقوة.

(٣٠)

يتوهجُ هارون أمام الحشود، جمهورٌ مائي يتدفق يتمـــوج، يهتـــف، ويمسكُ الميكرفون ويتفجرُ بصواعق، خيولُ خالد بن الوليد تَدخلُ الميدان، جموعُ الرومِ تهربُ لما وراء الحدود، يصيح: قذارة العهد السابق كلـــها في سلة المهملات، ونحن نقفزُ إلى القمة!

الروحُ الصحراويةُ الحرة تتغلغلُ في الجمهور المتيبس في شطائر الفول، تأخذُهُ من صناديق الزبالةِ والتجارة الصغيرة إلى شوارع الدخان، والشجر الميت والأرصفة المهترئة، يصيرُ ملائكةً، وحفاري مناجم، يصرخُ فيلتـــهبُ الناسَ وتمتلئُ صناديقُ الأصواتِ بالقوات، وأكيـــاسُ الريـــالاتِ تـــوزع، والطحين يصلُ لأزقة الغلابه، والدراويش يعودون، والبخور يملأ الساحات والذكر الحكيم، ويعود الذين شُردوا وأغتنوا وجمعوا الأجهـــزةَ والأفئـــدة واللواتي تحجبن وشمخن وركبن الختريرات، والذين اشتروا الفدادينَ البائرة وتسجيلات القرآن بصوت عبدالباسط عبدالصمد تلهبُ العواطفَ وتمـــلأُ الدوائرَ الانتخابية ببصمات العميان.

والدراويش تكاثروا:

حيْ!

يسقطُ من التعب والفرحُ يغمرهُ ويرى النيلَ يمشي نحو الصناديق الانتخابية وسفرات الذبائح:(كلوا من طيبات ما رزقناكم)، البلدُ الغارقةُ في البحر تطلع، وتمشي للمساجد، تتكاثرُ اللحى في الوجوه، وضرباتُ الحصى على الجباه، الشقةُ العاليةُ تحت ثعبان النهر الضخم الطويل، وأنوارُ السفن والفنادق تشعشع. والأولادُ والبنات حشدُ فرحٍ بصعودهِ للبرلمان، وكتلة الإيمان الواسعة التي تحيطُ به، ابنه عثمان يوشوش في أذنه:

الأمير سلمان يريد أن يراك.

يطلعُ في عينيه ويدرك ما يريد.

ثمة أناس رأوا جمالاً يَخطبُ في حشد!

أي جمال؟ أهو جمال السادات؟

لا، جمال عبدالناصر!

إبتسمَ للنكتة، قالَ بفرح:

أخي مات وشبع موتاً!

جماعةٌ صادقةٌ منا رأته، كان يشعلُ الماءَ البارد.

ماذا بك يا عثمان هل أصابَ عقلك شيء؟

والله العظيم إن جماعةً وليس فرداً رأته!

في كل الليالي الصحراوية، في نسجِ الكلمات، وصيدِ الغـــزالات، في أنفارِ القادمين من وراءِ الجدران والتلال والأشباح كان يراه.

محمود إستلمَ كلَ شيءٍ منذ زمن، وذاك غابَ ومرِضَ ثم زال.

لم يصدق وهو يستلقي على السرير ونجومُ السماءِ حباتُ لؤلؤ بـــين يديه أن يرى جمالاً يمشي في الفضاء، يؤشرُ له بيده.

كان زمناً ريفياً سعيداً حين جلسوا معاً، لم تفرقهم الثكناتُ وتفاسيرُ الآيات والفدادين، في كل لحظةٍ يتذكر وجهَ جمال الجانبي وإبتسامته، والأم تخطو لهم تحملُ الأرغفةَ المثقلة بالبيض والعسل.

قال له عن التفاسير العظيمة فأبى، عن سيرِ الأئمة الكبـــار فمـــضى بعيداً، وحين غامرَ بالبلدِ وجاء بالجنود ذُهل وتضاربت مشاعرُهُ ومـــلأتْ نفسَهُ الآمالُ الكبارُ حتى سجنه.

جمالٌ لم يدخل غرفته في الفندق وسمعَ صوته في غرفةٍ أخرى، أهـــو حي حقاً؟ ما باله يضطربُ لخيالاتٍ وأشباح؟

يسمع:

أيها الأخوة المواطنون!

هو صوتُهُ ولكنه تبدل قليلاً، فيه بحةٌ إبراهيم متعثرة وغاب الـــصوتُ الشجي صوتُ جمال، إنه يتكلمُ عن الإبل القادمة من الفيافي تحملُ القيـــودَ والخناجرَ والخزائن الفارغة، يشيرُ إليه ويضعُ صورتَهُ هدفاً يُضرب بالسهام.

إنهم يريدون أن يسرقوا خلاخيلَ المحروسة الأخيرة! يا أخوتي رأيتُ الإبل تطوي الفلا طياً، يختبئُ فيها الجنودُ وصرر النقود، يشترون المـــزارعَ الكاسدة برخصِ التراب!

تتوقفُ يدهُ عن الكأس.

يا إلهي رب الجنود، من يتكلم هكذا؟ أهو تسجيل؟ هو صوتُهُ كما غاصَ قديماً في لحمِ الناس!

صوتُهُ يتفجرُ ثانيةً:

لقد سمعتُ ذلك البدوي يكلم أخي هارون، ويريد أن يشتري النهرَ ويحوله لبرك السباحة والمستنقعات. ما بالكم لا تصدقونني؟ لقـــد عـــشتُ ومتُّ لم أسرقْ منكم جنيهاً واحداً!

ثمة شاعرٌ يدندنُ في الحفل المجنون:

جمالٌ أقدمُ من مصر. سابقٌ على الأهرامات، لحمُهُ مـــن الطمـــي، وشِّعرُهُ من النهر، وصوتُهُ من الحلم.

يا إلهي ربَ النقودِ لا يزالُ الكفرةُ يعبثون بالنصوص والتاريخ!

(٣١)

يمشي جمال وإبراهيم في ظلالِ الحياة، تطوفُ بهما ذكرياتُ الفتـــوة، وخيالاتُ التداخلِ الحميمِ بين شكليهما وقيامهما بمقالب منها.

أشجارُ عوسجٍ ومفازاتٌ ودخانٌ متوهجٌ وبشرٌ يَشوون ويُشوون.

جمال يغذي الذكريات وإبراهيم يوقدُ الضمير.

حين يرحل جمال ويلبسُ جسدَ أخيه يرى نفسَهُ في دهاليز معتمة، وكرابيج تَنزلُ على جسدهِ شبه العاري، وأصواتٌ تنادي بأن يُهتفَ باسمه، وشظايا مخه تتطاير!

أسلاكٌ كهربائية تُوضعُ على صدرهِ وتجعلهُ يرتجف، وبصرُهُ يرى فَارينَ في الصحراء يركضون والكلابُ وراءهم والرصاصُ يئزُّ على ظهورهم!

يحاول أن يخرجَ من جسمِ أخيه، ينتفض، ويرى نفسَهُ يسير في الحارات القديمة، ويدخل بيتاً، ويجدُ امرأةً عمياءَ وطفلاً، تهمسُّ المرأة:

هل جئتَ يا إبراهيم؟ أين كنت؟ أضعتَ ثانية؟

يُخرجُ كلماته بهدوءٍ وذهول:

لم أضع. كنتُ بين جهنم والجنون.

ما بك؟ مالْ صوتك متغير؟ ماذا تقول؟

الطفلُ يقتربُ منه مبتسماً. يحضنه ويدغدغه. فاطمة تلتصق به، وهو يتنحى.

ثمة رجلٌ يطالعه. فتحي يفتشُ في الصناديق عن كتبٍ وأشرطة ويتذكر، لمحهُ فبصق أغصانَ القات.

في المقر يجد شيوخاً صلعاً وطبولاً تهزُّ الأوراق.

يرى لويس وقد صار كهلاً مثخناً بطياتِ اللحم. حتى بعد أن طرده من الجيش ظل شامخاً.

يسمع موظفاً كبيراً عنده يقول:

كان زمن جمال هو الذي خرب كلَ شيء.

لويس يردُّ بقوة.

ردَّ رئيسُ الجلسةِ اسمَهُ مراراً، وتطلعَ بعضُ الحضور فيه.

إنتبهَ! إنه لم يعد جمالاً بل إبراهيم!

ياه جاء لهؤلاء بعد أن كسحهم وجعلهم هشيماً. يمشي بين الصفوف، وأجنحةُ الفراعنةِ والسَلف تطيرُ به إلى المنصة، يمسكُ الميكرفونَ الزمنَ ويقرأ، تمتدُ يدَهُ وتسحبُ شباباً من الأزقة، صوتُهُ يتغلغلُ في الجدران والبيوت، والناس تسمع صوتاً قديماً جديداً، تتحركُ بالسرعةِ البطيئة.

أيها الأخوة المواطنون!

أيها الأخوةُ والأخوات، أيها الرفاق!

هذا المصنعُ الذي أممهُ صار حديداً خردة، وثمة مجموعةٌ من الكائنات والعضايات تحملُ الأشياءَ الصدئة إلى السوق، ولا يزالُ الدخانُ يملأُ السماءَ على هيئةِ عفاريت.

يدخل على ابنه عبدالحميد في الكراج يتطلعُ إلى سياراته وهي تُصبغُ وتُنتزعُ المقاعد العتيقة، ورنيش الصبغ ملأَ أجزاء من وجهه، وشعره إختفى، وهو يصرخ على العمال.

يقتربُ منه، يتطلع إليه بحب غامر. يحدقُ فيه ابنُهُ بدهشةٍ ممزوجة بإمتعاض:

أهذا وقته؟ ماذا تريد يا عمي إبراهيم؟

لستُ عمك، أنا أبوك!

يترعُ القفازَ من يده وهو يقترب:

أعرفُ إنك أُصبت بمرض النسيان الخبيث .. لكن أن يصل بك التخريف إلى هذا المستوى؟!

يتأمله بمودة متفجرة، يمشي عنه، يدخل البيت، هنا روائحُهُ وذكرياته، وقد ذهب الحراس، والبواب السوداني البريء الفكه، هذه ابنتُهُ في حجرتها ترفعُ رأسَها من فوق ورقةٍ وتنصتُ لصوتٍ، ووجهها المتهدل، يكاد أن يطيحَ بعموده الفقري.

المسجل يبعثُ صوتَهُ وهو في الميدان من الزمن العظيم، يرى صواعقَ وكراتٍ من النار تتساقط، وهو يمشي بين السياراتِ المحترقة والجثث، ويدٌ تمسكُ رجله فيفكها بقسوة.

يقتربُ من ابنتهِ أكثر وهي مندهشة:

عمي كيف دخلت ..الباب مغلق!؟

يا حبيبتي . .

فليمضِ لا أحدَ يعرفهُ، حتى زوجته لم تشم رائحته، وارتعبتْ وهو يقرع الباب.

يترل للشوارع، البائع في كشكه يتطلع فيه مذهولاً، يقترب منه ويصيح(هو أنت حي، ما متش؟)، يتجمع حوله أناسٌ يحضنونه، يقبلونه، يرفع أياديه محيياً، وهو يسمع أستاذاً متحجراً يقول:

هذا شبيهه، يخلقُ من الشبه أربعين حرامي!

لماذا الناس يحبونه كل هذا الحب؟ ماذا فعل بكلِ هذه المودة، لماذا يخرقون جدرانَ الزمن ويعيشون معه؟

النيلُ يُنهضُ عاملين سمراً، الأراضي ترقصُ بالسنابل والقطن، ودخانُ المعامل على مدى النظر.

عندما وقفَ على رؤوس الشباب في المقهى وبدأ يخطب: أيها الأخوة المواطنون، لم يسمع أحدٌ صوته، يصرخ، ويطلق قذائف لغوية من الانفجارات، راح يدعو لاسترجاع المصانع، وسحق القمل من الشَعر الجميل للحسناء، وتكوين كتائب، لكنه تعب، وقدم له أحدُ الشباب مقعداً وزجاجةَ عصير، فأستردَ بعضَ صوته، ورأى الشاشةَ تخاطبُ جمهوراً وراء نهر السين، والجثثُ تطفو على نهر الفولجا، ورأس لينين مقطوعاً بلاستيكياً يتقلبُ على المياه، ويحاول أن يخطبَ وهو يبلع ماءً.

حدقَ بذهول، ورأى كلَ شاب بيده مثل هذا الجهاز وهذا ينبش حقول الأرز في الميكونغ، وذاك يمشي في بومبي يسمع كلمات إجتماع، وآخر يغازل امرأة جميلة في مهرجان برازيلي وصخب الناس وضجيج الرقصات وعطور النبتات والورود تتدفق عليه.

والتقت عيناه بفتحي. يشرب الشاي الأحمر ويغذي الشاشةَ بكراساته القديمة، يقترب أكثر.

(٣٢)

تهربُ مريم من مخالب أحمس أو أمجد أو أحمد. تختبئُ في ظلالِ الأزقة، ويهجمُ الدراويش على فستانِها ويأكلونه وتغدو عاريةً تجري تحملُ قلبَها بين أصابعها وهو يدق.

أحمس يَظهرُ في السماء بالوناً هائلاً ذا عيون كثيرة يطلقُ قذائفه فوق المسرح والأزقة.

طياتُ وجههِ تتسعُ عبر الرمال وتصيرُ عواصفَ من الكثبان والأقنعة والسحرة.

الشكوكُ تفاقمتْ من رؤيةِ الشباب يحدقُ في ثدييها ومؤخرتها في المقهى، إبتسامات تتحول لإبر، ويأتي المتصوفة من أعماق المسرح ويُجلدون، وتتدفق كومات النساء ويعرضن للبيع.

تجري في دهاليز التاريخ، وصرخات وعواء في كل زاوية، والتي تهـــزُّ سريرَ الطفل بلا رأس، وغناؤها مرير، تأخذها العباءة من قبرٍ إلى قبر، تقطعُ عقدَ النكاحِ وتقذفه في وجهه، ويتجمع الدراويش حولها، تجري.

هذه شقة أحمد أخوها معتمة، خافتة، كهف عصري، وهو جالس في مكتبه يدبج قصاصات الرزق، تحول وجهه لأيقونة قديس من البلاستيك. مجلداتٌ عن الوجوهِ والصحابةِ والبسملة، وزوجتُهُ متحجبـــة ولا تقابـــل الغرباء خوفاً من الفتنة والجراثيم، أحمد أكتهل كثيراً، غدا عجوزاً، إنسحبَ لكهف، والكهفُ مليءٌ بما أكلتْ السباعُ، يكلمُ الأشباحَ، لم يعد قـــادراً على كتابة سيناريو، يقطعُ مشاهدَه بمقص الحلالِ والحرام فلا يبقى ســـوى قطعٍ متناثرةٍ من شريط أسود وملابس داخلية تختطفُها الأيدي.

مشى للوراء بعيداً عنها، كأنه حطَّ في جزيرة ابن طفيل، تداخل مع القرود بأسماله ولحيته الكثة، و لم يعد ثمة فرق سوى أن يهز ذيله ويـــرقص طالباً الموز، ويتسلق الجذوع.

فتحي كان يعلمُ ابنها وحوله تلالٌ من الكتب. حضنتهما.

ألقتْ نفسَها خارج الشقة كأن قوةً قذفتْ بها للتراب.

رأت ثلةَ الذئاب الدراويش تفترس امرأة. تجلدها وتنكحهـــا حـــتى تتوب.

ثم إنتبهوا إليها، أسرعتْ في دروب الحتة التي تعرفها كخطوطِ الكف السحرية الصائبة القراءة، دويُّ نعالِهم وحوافرهم عنيف، يحرقُ الـــصلبانَ والصورَ والتماثيل على الجدران.

توزعوا وتحاوطوها وأرسلوا مسجات للشرطة والحشاشين، وراحوا يقتربون وكأن سيقانهم المفتوحة ستأخذها بالأحضان.

سمع صرخة مدوية:

ابتعدوا يا رمم!

من هذا الصارخ، هذا صوت تعرفه، لكنه مات!

العملاق يقترب، شظايا ومرايا الأضواء الباهتة تزل كأنصال. وتظهر دائرةٌ مخيفةٌ من الأصوات والهواء الدوار ومسحوق النار، واللـــسع يطـــالُ وجوههم، والجمرُ يحرقُ لحاهَم الكثة الصناعية، وتشتعل سراويلهم المليئـــة بالسوائل المتجمدة، ويصيحون:

من هذا؟

أجري يا مرسي!

هذا يشبه الملعون..

أركضْ يا بخيت!

شاشةٌ هائلةٌ لأبو الهول، واليد تمتد لمريم، التي غاصت في مستنقع بحيرةِ التماسيح، وتكسرت قواربُ الصيادين فيها، وسقطتْ أعمـــدةُ المـــسرح عليها، وأحترقتْ الأوبرا فيها، وتشردتْ الأسماكُ المضيئةُ منها.

رأت غبارَهم وبقايا نصوصِهم الرمادية المنتشرة.

(٣٣)

بحرٌ من الشباب، زهرٌ ملونٌ متبرعمٌ يتفتح بين الأرصفة والأرغفة، نهرٌ آخر يَلدُ النوارسَ والصرخات، أمواجٌ تتدفق لا يعرف من أي حـــارات أو مدن أو شواطئ أو صحارى، إصطخابٌ عنيفٌ للمد، ورقٌ ناري يتـــوزع ويغمر الشاشات والشوارع.

يتطلع جمال بذهولٍ ورعب وأنس شفاف خائف.

يصرخ:

من هؤلاء؟ من سمحَ لهم بالخروج؟

يترلون من المصاعد، من العمارات الهرمة، من الفنادق المهجـــورة، ومن لوكندات المقابر، من القلاعِ الأثرية المتآكلة، يحمحمون في الشوارع، يحطمون تماثيلَ الرعب، يُخرجون الصيادين بشبكاتِهم من البحـــر ومـــن أجوافِ الحيتان، الأمهاتُ يدفعن بهم إلى التنور الواسع الممتد من البحرِ إلى الصعيد.

يتطلعُ إليهم بفرحٍ غامر، ويقفزُ في الفضاء حتى أنف أبـــو الهـــول المجدوع، ويترلُ على الأرض نورساً.

يتدفقون من الأندية الرياضية وحمامات السونا ومن المقاهي التي تضجُّ بصرخاتِ الأجهزة ومن الجرائد تحت الأرض والشققِ المزدحمة ومن المعامل النافقة.

يظهر جنودهُ في طوابير. يدقون الأرضَ ويكسرون أنوفَها.

يطلعون من الهرم، من الأقبيةِ السوداء للدودِ المتوالد المتعفنِ المتغـــذي جيداً عبر العصور.

يطلعون من كتائب عمرو ومن قبعةِ محمد علـــي الهائلـــة بعـــرضِ السماوات، من مذبحةِ المماليك، يقفزون على جيادِهم من القلعةِ إلى قلب الجماهير، بخيولِهم وحميرِهم وأبلِهم يَضربون بالسيوفِ الهامات، التي تُقطعُ وتتطوحُ وترقصُ على الأرصفةِ و ما تزالُ تغني.

يأتون من الصعيد بكلابشاتِهم وبنادقِهم الصدئةِ يطلقون النارَ علـــى الفتياتِ الناهدات الصدور، فتطير طيورُ الدم على هيئةِ أقحونات كبيرة.

يُخرجون اللصوصَ والكهوفَ والمصانعَ الخردة ومستنقعات العَلمين الملأى بالجثث والعساكر والبدو الذين ما زالوا نائمين، غاباتٌ من الهياكل العظمية تقتحمُ الجموعُ وتمطرُ ماءً ساخناً حارقاً وغازات سامةً والـــشباب يتلوى.

يصنعون الجسورَ بين بادية الرمال وتلال الريـــال وجمـــوع القـــرى الضائعة في المقابر.

يندفع جمال وسط الصفوف، يلبسُ بدلته العسكرية بكل نجومهـــا، الرصاصية، والخفافيشُ تخترقه.

يجري نحو محمود، القصرُ على هيئةِ عمالقة، الطائرات العمودية تحلقُ وتصوبُ الأضواءَ والمجاهر والرصاصَ على النمل، الصرخاتُ تلاحقه:

أرفعْ يديك! إنبطحْ، سوف نطلقُ الرصاص!

الرصاصُ الحي يخترقه، قذائف تمحو موقعَهُ وصوره وكتبه ولوحاته، يعبرُ الساحة، العساكرُ تنزلُ من الفضاء، وتطلع من جذور الأرض، ومن خبز المساكين، هذا كان مكتبه، يُرفعُ الآن من رجليهِ ويُعلقُ ويُضربُ في البلاط الذي يحتضنه ويحرره.

يجري بين التماثل الفرعونيةِ المنصوبةِ على طرفي الدرب، كلها تمد أيديها لتضربه، كليوبترا تتعرى وتغريه، وهو ينحني ويقفز، ويزحف، تتكسرُ أذرعُها وتعوي أفواهها.

يصرخ محمود:

مين ده؟

يقول إنه جمال عبدالناصر!

خذوهُ للسرايا الصفرا.

يقترب من كرسي العرش حيث فرعون يشاهد الرقص البلدي، ويهتزُ فرحاً، ويشيرُ بأصابعه لمرؤوسيه إلى الصدر الناهد المفتوح الذي تتساقط منه الجنيهات المخبأة، يمسكُهُ من عنقه ويدقُ به الأرضَ والضباط يُذعورون ويهربون بالسيارات الفخمة وسفن السياحة، يعصرُ عنقَه وتندفع من حنجرتهِ الشيكات وتوكيلات البنوك ونافورات الغاز.

(٣٤)

جاءَ من البرية، ولبسَ شوكاً، نفضَ دخان المصانع.

موسى يكلمُ أخاه هارون:

جاءك الفيضانُ إلى بابك، فما بكَ مترو، تختبـــئُ تحـــت اللحـــاف المصنوع من وبرٍّ ودبلوماسية وخوف؟!

كفْ عن الصراخ في وجهي!

ماذا هل ستأمرُ حراسَك أن يضربونني؟

الفيلا مُطهرةٌ، ينهضُ بقامة ممتدة إلى العصافير، التماثيل حُطمـــتْ، واللوحاتُ مُحيتْ، والبركةُ إمتلأتْ بـــالجواري، والأعـــشاشُ حُرقـــت، والبيضاتُ أُكلت.

بحرُ الجماهير لا يُصدق، من أين أحضرَ هؤلاء الأولاد والبنات كـــلَ هذه الشجاعة؟ ولماذا يضربُ محمود بكل هذه القسوة والجثثُ طفحـــتْ فوق مجرى النيل؟

يتبعهُ موسى في خطوه الرملي عبر مشي الصحراء الوئيد، مرة يغدو ثعباناً ومرات صعلوكاً ودرويشاً، وما فلحَ تصوفهُ وحفظُهُ لابن الفـــارض وطيرانُهُ في سماءِ الغزالي، وإكتساحه لخمرة الخيام.

ينهرُهُ بإزدراء:

أغويتَ جمالاً حتى تبطّرَ وظنَّ نفسَه معبوداً، فماذا تريدُ مني؟

أخرجْ إلى الشارع، أخرجْ إلى الناس، بدلاً من هذا البناءِ البرجوازي، المملوكي، وكفْ عن كتابة وريقات تتطاير في رياح الدم والأعاصير!

يتأملُ هارون الورقَ المتساقطَ من التيجان والأقحوانات المداسة، وقد رَمى القِداحَ فظهرتْ على الصمتِ والأنتظار، وجثمَ المجمعُ في ضوءِ الشموع بعد إنطفاءِ الأنوارِ وإنتشارِ العيون، وخرجَ كلٌ منهم في زقاق، وتحذروا من أن تدوس أحذيتُهم الرياضية الورقَ الذي تقيأتُهُ الأشجارُ حزناً على الأولاد.

أخرجْ يا هارون وعبأْ جماعتك، أنزلْ!

هل أنت مجنون؟ ألا ترى كلَ هذه المصفحات وأمطار الرصاص؟

محمود إنتهى. يُقال بأنه أُصيبَ بالجنون في القصر، وراح يجري من قاعةٍ لأخرى. خوفاً من شبحٍ يطارده.

أنظرْ للعساكر تملأُ الرحبَ!؟

فأين القبورُ من عهدِ أحمس؟!

ستمزقهم غابةُ المدرعاتِ والشاحنات!

سيتضعضعون، ويهربون لبيوتهم، وينضمون للناس!

هي مؤامرة لكي أُدخلَ جماعتي فيصطادوننا بالجملة، صبرنَا عقوداً، فلماذا نجري الآن؟

كيف تخاف ومعك جيوش البدو؟

الأميرُ سلمان لا يكفُ عن الاتصال، وجهُهُ على الشاشة غداً وجوهاً متداخلة، بقناعٍ، وبشروخ، ثم ينطفئُ ويصيرُ خطوطاً من ذبذباتٍ صائحة.

ماذا ستفعلون، ماذا ستفعلون؟

تتحول الجملُ إلى وشوشة تلفزيون فقدَ الذاكرة.

تتقاربُ الرؤوس، تهمس، الطاولاتُ تهتز، الأيدي تمسكُ الخشبَ، المقهى يكادُ يطير في الهواء، طوفان يعبر، الرؤوسُ تحدقُ في بعضها، تضعُ علاماتٍ صغيرةً على الورق، يخرجون واحداً بعد واحدٍ، يتلفتون، يتسربون بين حطامِ الأشياء والأشلاء، ويمشون على أطراف أصابعهم.

(٣٥)

(أنهضْ أوزريس هذا ابنكَ حوريس)!

ينتبه إبراهيم، يستيقظ فيرى شقته كأنها خرابة، والأصواتُ هادرةٌ تهزُّ الوجود، والنسوةُ يتصايحن بقوةٍ عالية، نزعَ فليناً من أذنيه، وتساقطَ وهنٌ من عينيه، وحامَ نسرٌ في دماغه.

النساءُ يصرخن صراخاً غريباً، يرى فاطمة تمشي كأنها مبصرة، تمسكُ قشورَ الجدار وتتحسسُّ طريقَ العاصفة، النسوة يصحنَّ بها:

إلى أين يا وليه؟

كفاكن من هذه اللغة. أنزلُ للشوارع، للشباب، أستعيدُ نظري وشِعري وشبابي.

الناس مالئة كل الدروب.

وماذا ستفعلين وسط المفتحين العاجزين؟

أحسُّ إنني كأيام زمان، الطلبة والناس أيد وحدة، كنا نجري ونوزع القرنفل على الجنود، كان فبراير!

ينتبهُ لابنه فتحي على الشاشة يرسلُ الأصواتَ عبر الفضاء. يسمعه يتكلم:

– يا عمي جمال جاءتْ خناجركَ في لحمنا. هذا البيت كم عانى منك! هل تدري كيف كنا نمشي في البرية لأجل أن نرى أبي؟ ونبحث عن جثة أخي؟ هنا صناديق مليئة بخطبك وكتب أصفرت من مرحلتك. أتعرف كيف ضعتُ في اليمن وأحببتُ بلقيس التي سوف تأتي.

الشباب يتحلقُ حوله، ويتزلون ضاجين بصخب الكلمات.

يطالعُ إبراهيمُ مفكرته، يرى أسماءً ذابتْ من عرقِ أصابعه، ويرفع الهاتف، ويتصلُ وإذا به رقم شخص ماتَ غرقاً في البحر الأحمر، والرقم الآخر لعامل لكنه يتحول لرقمٍ خارجي، ويأتي صوتٌ من بعيد:

أزي مصر؟ والأولاد عاملين أيه؟ وصل التحويل وللا لا؟

ثم يواصلُ الصوتُ في خرمِ أذنه:

- وصلْ.. وصلْ .. وصل!

يغلقُ الخطَ الروحي الشيطاني.

بناياتٌ كانت جاثمة أبداً هناك راحت تتحرك وتنفضُ الغبارَ والكلسَّ الأسودَ الناقع سنين، والنهرُ البشري يأخذهم ويطفون فوق الأصوات، ويرون فاطمة تقرأُ في ساحةٍ أمام حشدٍ من الشهداء، ومريم تقودُ سحابةً ممطرة، الجموعُ لا تتوقف، وتنهمرُ في ميدانٍ هائل، الروافدُ تخرجُ من المساكن والمقابر والمساجد، والشعاراتُ لا تعجب إبراهيم، وفتحي أزدهر عقله بالكلمات وأطلق كل هتافات الجنود المشحونين إلى الجبال فطار عبر القوت من فوق أكتاف الشباب.

البردُ في الأعالي والدفءُ في الناس، والخيامُ تتسعُ للبشر والنجوم، والجمرُ ينبعثُ من الأيدي ويرى مزرعةً من الوجوهِ الغضةِ لم تره، وتمشي الجنازير وتتوقفُ من صلابةِ العظام، ويرى أخاه هارون فوق مصطبة وغابة من الميكروفونات تحيطُ برأسه، وشعرُهُ وكلماتُهُ وجبهتُهُ وصلعته تملأُ الشاشات، وأصابعُهُ تصل لرقبة محمود وتحوله لدمية مربوطة بحبل وتتدلى تحت بحرٍ من الإيدي التي لا تطالها.

يركض، يجري، نحو أخيه، يأخذه بالأحضان:

عرفتُ، عرفتُ أنكم ستفعلونها، وبعد أن صبرتم نلتم.

والله نحن في خدمة الدين والناس.

هذه ابنته مريم قديسة تشقُ الطريقَ بعد أن ثقبتها رصاصة، تصرخُ على المرج الشبابي أن يذهبَ لموسيقى المارسيليز وسيد درويش ويُخرجُ أبو صلاح من دهليز النوم، ويكسرَ ذلَ الغلابة، وتصورُ هارونَ عائداً من الصحراء بصناديق ملأى بفتاتِ الفضةِ والجواري في الخيام، ويجلسُ على كرسي العرشِ تدلكهُ النسوةُ المحجباتُ، ويترلُ هارونُ الرشيدُ من السماء على ثورٍ ضخم ذي أجنحةٍ، المسرحُ ذو الملايين من العيون يغفو، ويصحو، ويتشاجر على الفول والترمس، هارون يتجمد وجهه، والناسُ تضعُ أصواتَها في الصناديق فيبتهج.

الحراسُ يهجمون على مريم، يجرّونها، والجمهور الغافي يحدقُ بالمشهد، يقيدونها، وهي ترفسُ الزوارقَ الورقيةَ التي تغطسُ في النيل، والمنشورات، وتحتشدُ نسوةٌ مثل غابةٍ سوداء وراء الصناديق يضعنَّ الورقَ والكلبشات والأحجبةَ والعيال.

مريم تجري على المسرح، يطاردها أحمس وعثمان وسمير ويلقون الشباكَ والرصاص والورد البلاستيكي المسموم.

(٣٦)

مريم فوق الحشود، مرفوعةٌ بألفِ نخلة رطبِها للفقراء، وتماسيحُ النيلِ وداعةٌ قرب أرجلِ الأطفال، أصابعُها تغلغلتْ في الكهوف، إتسعتْ عيونُ النسوةِ حتى إمتلأتْ بالرمال، العباءاتُ طارتْ في الأزقةِ ساحراتٍ

غاضبات، ولعلعلتْ الميكروفونات، ومسحَ الشيوخُ لحاهَم فتدفقتْ الكلماتُ الحَيات، وجثم إبراهيم طويلاً في المقهى ورأى قافلته السائرة من النوبةِ في سرابِ النار تغرقُ في الرماد، وهمسَ:

لم يكن مجيءُ الأبِ عبثاً!

وأطلقَ سحابةً من الدخان:

صبرنا ونلنا. دهنُنا في ماعوننا!

أهذا حلمٌ أم كابوس؟ فتاتُهُ الصغيرةُ مريم الضائعةُ الملامح في الموسيقى والمسرح والحجاب والزمان والكتاب تقف على الهرم الأكبر، أهو فمها يتكلم؟ أليس ثمة آلةٌ تراسلُها من بين السحبِ أو قمرٌ مشبوهٌ يُغششها؟

حين يقف معها على خشبةِ الصوت الملون يرى الناسُ جَمالاً، فتصيرُ الجماهيرُ بحراً.

اللحى غطتْ الضفةَ الشرقية، وما عادتْ الصبايا قادراتٍ على الرقص، والبدو الموتى إنتشروا في المطاعم يأكلون الأغنامَ الحيةَ والأنعام.

يتأمل هارون الموقفَ بدهشةٍ وينفجر:

أمريم ترشحُ نفسَها لهذا المنصب الرفيع، مريم دون غيرها من العائلة وتأتي لتنافسني؟

العائلةُ توقفتْ هواتفُها وما تزال الطيورُ تتساقط من دوي المكالمات مشويةً متبلةً، وتجيبُ بصوتٍ واحد:

نعم!

مَن لديها؟ من يسندها؟ من يقف وراء هذه الحرمة؟

الموسيقيون العاطلون، وفنانو المسرح الجاد الذين خسروا أعمالَهم بعد تدفق البدو المحبون للرقص الشرقي والتخوت القديمة حيث اللحم الكثيف المتدلي، وموظفو المتاحفِ القديمة التي هُجرت أو أُحرقت، ورجال الجمارك الشرفاء المحاصرون والرافضون للبخشيش وعمال القطاع العام وعمال..، والأدباء..

كفى!

والمهاجرون والعاطلون..

لا تتكملوا! أعرفُ هؤلاء! إنهم لا يستطيعون أن يحركوا قلامةً في التاريخ الذي نكتبه.

خففْ حقدَك القديم، مصرُ تصير..

كان حسن يسمعُ وهو محبوسٌ في قاع البركة حوله تماثيلٌ محطمة، يتخيلُ مريم شجرةَ تفاح، يتدلى على أغصانها، ويقتربُ من السطح، حيث الماءُ المترقرقُ الأزرق أسوّد من دخان النارجيلات وشواء الدجاج والكباب، يسبحُ بعيداً، ويزحفُ نحو غرفةِ الملابس، ويرتدي ثوباً طويلاً ويضعُ لحيةً في ذقنه، وزبيبةً في جبينه، وعصا في يده ويخرجُ للشارع.

الشوارعُ مليئةٌ، والحشودُ تمشي للشجر والنجوم، والبحرُ يتكلمُ إماماً للناس.

ينهضُ هارون غاضباً.

كيف هربَ الولد؟

ترى مريم المسرحَ فارغاً، كأنها ترقصُ في الإوبرا القديمة المتوهجة بالنار، النساء المملوكيات خرجن من ترابهن، أمتلأ المسرحُ بالجواري والعبيد والخصيان، نهض المماليكُ من قلعة محمد علي متدثرين بالأكفان الحمراء وانطلقوا بسيوفهم نحوها، غضبَ الرجالُ ذوو الشوارب واللحى الكثة وهجموا بنارجيلاتهم وقوائم ديونهم، شبان الجماعات الموعودون بالجواري هبوا هبةَ رجلٍ واحد.

تزحفُ من بين الأنقاض، تُلقي بالملاءاتِ والأحجبةِ والأرغفة المصنوعةِ من الترابِ وصكوك الغفران ولعنات النسوان وقانون الختان.

يظهر سمير على باب الشقة، تساقطتْ شعيراتٌ من رأسها وسحرها.

سمير من أحضرك بعد هذه الغيبة كلها؟

ابنهما ياسين يهجم على ساقيه فيبعدهُ بفظاظة:

سوف تخربين عقودي الفنية الجديدة، هناك مسلسلٌ بدوي يكاد ينتهي، أغنيةٌ مهمة للشاعر الأمير سلمان.. كل هذه سوف أخسرها بسببك!

ما علاقتي أنا بكل هذا؟

ألستِ زوجتي الهاربة؟

من يتذكر؟

الملفاتُ السوداء.

والثمن أن أتراجع عن القمة!

أو تجثمين في بيت الطاعة.

بيت الطاعة يا سمير بعد كل تلك السيمفونيات والمسرحيات والقصائد، أنغوصُ في مثل هذا المستنقع؟

عليها أن تتذكر هذا الفتى الوردي لحظات كيف كان واعداً بقوسِ قزح، كيف كان الفقرُ رفيقَ نور، ماذا بقيّ من أرواحنا؟

يهجمون عليها، يقيدونها، يسحبونها، ابنها ياسين يعضُّ سيقانَهم ويرسلُ أسنانَه الحليبية للشمس ولجده إبراهيم الذي يُشوى في نار الذاكرة، ولا يزالُ مقيداً في عبادة الأصنام.

تعودُ للمسرح، الفتياتُ يخرجن من الحارات مشتعلات بشعورِهن السوداء تطيرُ منها الفراشات، غابةُ السوادِ تصيرُ خضراء والزهر في الجنائن والملكوت في الصدور.

يدخل كائنٌ مغبرٌ ذو لحيةٍ كثة مشذبة تشذيباً فرنسياً، يطردُ السرابَ والأتربةَ ويتجلى أحمس أو أمجد أو أحمد هادئاً:

لقد هربتِ مني ولكن الله بدلك بنسوةٍ مطيعات طيبات.

ماذا تريد أنت الآخر، أنا مشغولة بكتابةِ الخطابات والجلسات مع المواطنين وبالخروج من شباكِ لجان الانتخابات ومستنقعات اللحى والذيول ولجان الاستجواب واللجان الفرعية!

أنا مثلكِ أستخرتُ ودخلتُ هذه المعمعةَ عساها أن تكون خيراً ونوقف زحفَ الشياطين والمثليين..

أذهبْ عني! كفاية كل ذلك الوقت الذي بذلته وذلك الجسم الذي مزقته.

يتقدم بثلةٍ ظهرتْ من الباطن والكهف والأسربة:

كثيرة هي الأفلام التي سجلوها علينا، ضرباتهم وهم يغورون في الغيران الأخيرة أظهرتْ سجلات وأفلاماً مروعةً عنا. لو يظهر منظرُنا ونحن في الكهف، أو في سرير الزمالك الوردي، زمن الإنترنت الكوني، لانتهينا من السباق الانتخابي. ساعديني على البقاء في (الريس)، أرجوك بعشرتنا الطيبة.

تتطلع في الشاشة الكبيرة بذهول، هي عاريةٌ أمام المهرجان والميدان.

من شرب القهوة؟ من أعطى النجوى شكلها السحري في القائمين؟ من عروقِ أصابعِها ورقصِها ونومِها مع التماسيح مشتْ بين الجموع، التي تصبُ نارَ نظراتها عليها، عدسةٌ كبرى تكادُ تصهرها، جسدٌ حليبي من أثرِ النارِ يقفُ في مواجهة الأبصار ويطلق كلماته.

الجنسُ المؤنثُ المُيّبس، المكبوسُ في علبِ الصفيح والسمك المجفـــفِ، يَقلبُ صفحةَ البشر، يَخرجُ من رمادِ الأزقة، يمدُّ جمالٌ أصابعَهُ إليها.

تركضُ نحوه طفلةً:

عمي!

ليس هو بيتُهم القديم، ولا هو الزعيم، شبحٌ من الماضي يحومُ علـــى صفحةِ النيل.

حين كنتَ حياً نأيتَ عنا. خفتَ أن تتهمَ برشوة الأهل. الآن تقدم لي ورقاً سرياً، وخريطة لأتقدمَ بين الضواري.

لن تنجحي ولكن حاولي.

عمي يقاتلني بضراوة.

سوف ألتحمُ به!

هل تستطيع وأنت خيالٌ من مملكةِ الأطياف؟

خيالُ الروحِ والأرض الباقي!

خرج كلُ الغلابة الذين صنعتهم.

للأسف ستهزمكِ بناتُ جنسكِ!

النساء اللواتي بعتُ حياتي لهن؟

أجل.

المتواريات قبحاً، النائمات فجراً، الحاملات ظهراً، القانتات عصراً الراقصات ليلاً، الآنسات نهاراً السيدات عتمةً وخياماً وأنغاماً، المقرفات لغات، المزعجات شيشةً ودخاناً. الشاويات شعباً، المشويات أسرةً ونفقةً وطلاقاً وضرباً وغراماً.

جئنَّ للصناديق.

صاح جمال:

صوّتي يا مريم!

تشقُ جيبَها وتصرخ:

يا . . دهوتي!

(٣٧)

يتقدمُ الصوتُ ويتفجر:

إنهضْ يا إبراهيم!

تقدمتْ مريم على المسرح عميقاً، ثمة سياراتٌ مندفعة تحاولُ أن تدهسَها، والصرخاتُ تتعالى والإطاراتُ تحترق، وسواعدٌ تظهرُ من بين الدخان والجدران والنوافذ والغلال تسحبها نحو النور، تتقدمُ بين هياجِ الجماهير، وصرخاتِ الشباب يقودهم أخوها فتحي:

مريم، مريم!

الإفلامُ تَظهرُ على شاشة السماء، الخيولُ والسيوفُ عند الرجال، الكثبانُ تتحركُ في الصحراء تحاول إحتجازها، النمورُ تثبُ على ظلالها، تتقدمُ في عمق المسرح، البالونات تطير، والورقُ الملونُ يصل لنوافذ الأطفال.

هارون محاط بالجندرمة والأشباح وأسلاك الهواتف تتقطع والصراخ يتلوى منها، الأرقام تصعد، والرؤوس تحدقُ في القوائم وتنهار على الطاولات.

يصرخ:

الأنثى! ألم أقل لكم هي التي أخرجتْ أبانا من الجنة، وجعلتنا على الأرض نزحفُ من أجل اللقمة، وكنا سعداء في الأعالي؟

يا سيدي جماعاتنا تتقدم في الريف، الصعايدة هجموا، لا يمكن لهذه الشوارب أن تخضعَ لحرمة!

الباصاتُ تَشحنُ الناسَ وتضغطهم بين مقاعدِها وحديدِها وزجاجها وسلال الطيور، والقائدُ يقول: تدربوا على الورق، ضعوا علامةَ صحٍ أمام الأذان، ليس على الحمامة بل الأذان، ألا تعرف حي على الفلاح؟

ينهض هارون فزعاً:

إنها تتقدم بأصواتٍ كثيفة، المدينة الساحرة الخلابة النائمة في الحانات والمطاعم ومحلات الأزهار والتي أغرقناها بالمساجد والتكايا والزوايا والأشرطة، تصّوتُ لها، ما هذا؟ كيف تحدث مثل هذه الكوارث؟

الشمسياتُ على البلاجات مشتْ لصناديق الاقتراع. المغنون الذين قُطعتْ حناجرُهم غنوا وصوتوا. بحرُ النسوة اللواتي بِعنَّ في الأسواق لجيش الإسكندر وقيصر وعمرو بن العاص ينهضن من التراب ويُمنعن من التصويت لحسن الحظ.

جمال يصوت.

إبراهيم ينتبه، وهو يمشي مع نعيمة يقفان في الطابور الطويل.

وجهها في الشاشات، تسلمُ على الحشود، أيد تتغلغل بين الجموع، بالونات تتفجر.

خيمةٌ تحترق، سياراتُ إسعافٍ لا تخترق الحشود، أعمدة الدخان تتعالى من الدروب والأزقة والإطارات المحروقة.

أحدهم يصرخ:

ثمة شخص قذفَ زجاجةَ مولوتوف على المرشحة!

تظهر مريم شجرةً مشتعلة، مثل قذيفة نحو السماء، أطرافُها وأجنحتُها تتساقط على هيئةِ كتل من الرذاذ الأحمر الأسود المتطاير وعروق نورانية تصل إلى السماء.

فتحي عليه عباءةٌ مائية يحضنها، دائرةٌ من النار حولهما.

الجمهورُ المفزوعُ الهارب القادم المتصادم مطفئ النيران مشعلها، ينحني للعباءة الطائرة على هيئة قوس قزح هائل تحملُ معها الكثيرَ من العصافير والأغاني وأصوات الأجراس.

رؤوسٌ من النوافذ تبكي، خيامٌ من الساحات تطير.

هارون في شاشة كبيرة يتقدم معزياً أخاه إبراهيم الذي يبدو شبحاً.

ويلتفتُ لدستةٍ من الرجال ويؤشر فيندفعون لإغلاق المحلات المشبوهة والمراقص وإنترنت الثورات.

تمثال وسط الميدان يتحرك من قاعدته، يهتزُّ ويقلقلُ الأحجارَ والطوب، وتهتزُّ البيوتُ القريبة، ويرفع التمثالُ قدمَهُ فتتطاير بلاطاتٌ وتدوي، ويَترعُ أسفلت في دائرة كبيرة ذات سهام.

يمشي التمثال وثمة رصاصاتٌ تخترقه، لكنه يمشي، قذيفةُ مدفعٍ تصيبُ طربوشه ويسقطُ مفتتاً، ويظهر التمثال حاسراً ذا شعر كثيف غريب، ينحني، كقوس من الحديد، يرفعُ امرأةً بين ذراعيه العملاقين، ولا يزال الرصاصُ ينهمر، وتتفجر قرب رأسه قنابل دخانية، وتكبيرات، لكنه يمشي، ويدخل النهر، الذي يتدفق حوله برتابة وملل.

يمشي والموج يصل لكتفيه.

يتوارى قليلاً قليلاً في المياه.

الجمهورُ في الميدان مذهولٌ لمشي تمثالِ النهضة وغرقــه وذوبانــه في النهر.

يظهر رجلٌ أشيب على المسرح، يتقدم نحو الشجرة السوداء المحترقة، الخيمة ما تزال تشتعل وتصدر منها أصوات أجراس سماوية.

يهتف:

وعدنا بكِ يا مريم!

(٣٨)

جمال يمشي في أرض المستنقعات والبخار، التربة تغلــي، والطيــور تتساقط نافقة، يحدق ببصره ويمسح العرق الكثيف، يسد أنفه عنه الروائح.

يسمعُ صوتَها:

هنا يا عمي!

يخترقُ الشوكَ وتظهرُ رؤوسٌ من الحفر وأيدٍ تحاولُ أن تمسكَ قدميه، يرى لويس، قشرةُ رأسهِ متروعة، يصرخُ به:

أنقذني يا جمال هذه هي المرة العاشرة التي يُترع جلدي فيها!

يمسكُ يده، ويحترق شعره، ويسحبهُ من الحفرة، وألسنةُ النار تندفعُ من الهوةِ والصخور وتحاول أن تأكله.

ثلةٌ ذاتُ جلابيبٍ تندفع نحو لويس فيضربها جمال وتتناثر على هيئــةِ طيورٍ زاعقة.

يسحبه بعيداً.

يمضي نحو صرخات مريم، يراها فيفزع. تتقدم نحوه.

نخلة صامدة، سعفها وجريدها يهتز في الريح النارية وفتحي يحوطها بمائه.

يسقط بعض الرماد وينهضون معاً.

يدها تمتد نحوه، يسيرون نحو الضفاف الأخرى، حشرات تلسعهم، تماسيح تظهر في المستنقعات، صرخات أخيه هارون تأتي من الموج.

يجلسون في القارب والرماد يتساقط عليهم، بعض أوراق الحملة الانتخابية متفحمة على جذعها.

على الأرض وبمرأى عربات الفول تتساقط مريم شرارت.

المدينة خرست في الليل، الأنوار شاحبة، الفنادق خالية، الناس نائمة منذ العاشرة، وتصحو عند أذان الفجر، تخرجُ جيوشاً آلية، تتسرب للمغارات، كل شيء مرئي في عين الإله، وكثيرون يمشون بلا أيد ولا رؤوس، النساء كرات ضخمة في العتمة.

يمشي جمال في الميدان.

يرى أخاه هارون بلحية كثة في الشاشة الكبيرة ويظهر ومحمود ويتعانقان والجمهور يصفق ويصفر.

يجلس على كرسي وأمامه شاشة صغيرة، ينقر الحروف، تظهر بورسعيد وتتمدد سيناء امرأة مشتعلة.

يتقدم جمال على المسرح، يرتفعُ صوته:

– كان السمُ يتسرب في خلاياي، كنتُ أشعر بأظافر ملوثة تتغلغلُ في لحمي، كنتُ أرى أترابي المعجونين بتراب الخنادق ودم السواعد ينفصلون عن روحي، رأيتُ الأفقَ بعيداً، وأنا أركضُ وحيداً، الألبسة المنتفخة بالإشارات والنجوم تهترأ، وأنا مجهدٌ في الركض، أنزف، وكان السمُ ينتشر والدخانُ يملأُ رئتي إنفجارات غريبة، والنفطُ يحرقُ أصابعي، والرعاة يحيطون بي وكلابُهم تنبح، وتتصاعد التلال، والماء يتدفق على شَعري ولا يصل لقراري.

عليّ أن أجري، أن أكشف الحصالات تحت الأرض، والألغام، وأجدُ العوامَ لا يعودون لبيوتهم.

أترابي يشترون الأشياء الثمينة ويخبأونها، ويتزوجون في السر، ويكونون صداقات مريبة عبر الحدود، وأركض، أبحثُ عن رفاق حقيقيين فلا أجد، عن تضحيات فلا أسمع سوى كلمات، والسمُ يتصاعد، والدخانُ تغلغل في أرضي وجسدي، والصدأُ يعم الآلات، يوم موتي إسترحت من غابة الشوك التي خنقتني، رأيت الناس الذي يحبونني، أهل الأرصفة يرفعونني.

(٣٩)

كيف يمكن أن يراه في الغابة البشرية المتحولة شجراً يمشي في الشوارع حراً؟

بدلةُ جمال العسكريةِ التي تربط جسده في تمثالٍ تفككتْ قيودهـــا، وغدتْ قميصاً أبيض.

حسن! كم كانت تماثيلك مزيفة!

كانتْ لك.

الآن بدأت تشكلُ فناً.

عمي.. أعدتَ للحياة؟

لم أمت.

الشعارات تدوي، الزحام على أشده، خراطيم المياه تتـــدفقُ مطـــراً متوهجاً، جثثٌ تتساقط تحت أقدامهما، البدلات العسكرية تبدو من وراء المياه والنار.

لوحاتٌ كثيرة من أجسادِ الشباب ملونةٌ بالأحمر والأرصفةُ تنبثـــقُ فيها النار.

عمي لقد حاولوا أغراقي.

مثلما حاولوا قتلي مراراً.

يحملان شهيداً، والمياهُ تتدفق، والرصاصُ إخترق جـــسدَ الـــشاب الجميل، وتداخلت كلماتهما:

أرفعْ عندك وأحمل!

ضعهُ هنا.

انحنيا عن القنابل الدخانية العاصفة بالهواء.

جمل تتفجر، ويستندان لجدار وكل منهما يتطلع في الآخر.

عمي ! أنظرْ لبقاياك!

بل أُنظرْ لأولادي وبناتي، ها هو نسلي!

يخرجون من المعاهد، من مقاهي الإنترنت، من الصفوف، يطيرون بأجنحتهم فوق المياه والحصى والزحام ويتساقطون مضرجين على الأرصفة.

كان رائعاً، لم أتصور أن يموت. ذلك الهش الطيب، ابنك في بيتك، لكن راح في حملتك المخيفة.

كانت غلطةً مخيفة أدركت بعدها حجم أخطائي لكن الوقت فات للتصحيح بين الذئاب. إنطلقتُ للإمام، لا بد من التقدم حتى لا تسقطُ في الهوة!

يمضي بين الشباب، يتطلع فتحي فيه، قامة هائلة، عملاق وتحته نمل كثيف، والأولاد والبنات يمسكون أطراف بنطلونه وأزهارَه وعصافيرَه التي تطير معه، العسكرُ يحدقون فيه، ويدهنون لحاهم بالمسك، ويرفعون القرآين ويطلقون النار.

ينبطح الحشدُ معه والقذائف تمر عبر رؤوسهم، خيولُ الغزوات تنطلق نحوهم، يرفع جمال السورَ الشبابي المزروع بالورد وداخله الشوك وتترنح الخيول وتصهل بحدة ويتساقط العساكر.

الضابط يندفع من بين الأشلاء والصهيل الأخير للكائنات الأفـــراس السوداء وينطلق بسيارته حتى ينحني أمام محمود الذي يطالع الماء الـــساكن من وراء الزجاج.

لقد ضربناهم بكل ما لدينا في المخازن، لم تبق قذيفة أو فـــرس أو رصاصة!

واصلوا القصف!

لم يعد ثمة فائدة.

اتركوا الساحةَ للناس.

(٤٠)

جمال يتقدم على المسرح يقترب من بحر الجمهور حيث رأس واحدة متوحدة في طمي ونهر.

كان السمُ يتسرب في خلاياي، كنتُ أشعر باظافري ملوثة تتغلغلُ في لحمي، كنتُ أرى المعجونين بترابِ الخنادق ودم السواعد ينفصلون عـــن روحي، رأيتُ الأفقَ بعيداً، وأنا أركضُ وحيداً.

الألبسةُ المنتفخةُ بالاشارات والنجومِ تتهرأ، وأنا مجهدٌ في الـــركضِ، أنزفُ، وكان السمُ ينتشر، والدخان يملأ رئتي إنفجارات غريبـــة، والمـــاء

يتدفق على شعري ولا يصل لقراري، وعليّ أن أجري، أكشفُ الحصالات تحت الأرض والعظام، وأتلمس الألغام، وأجدُ العوامَ لا يعودون لبيوتهم.

وأترابي يشترون الأشياءَ الثمينة ويخبئونها، ويتزوجون في السر، ويكونوا علاقات مريبة خلف الحدود، وأركضُ، أبحثُ عن رفاقٍ حقيقيين، عن تضحيات، عن نوبات جنون وطنية، فلا أجد، والسمُ يتصاعد، والرشوةُ تنتشرُ والصدأُ يعمُّ الآلات.

يوم موتي إسترحتُ، رأيتُ الناسَ الذين يحبونني، أهل الأرصفة يرفعوني.

كان الضباطُ حولي. كنتُ أدعوهم للصندوق الأبيض. إختاروا الصندوقَ الأسود، وهربتْ الطائرةُ من رادار الناس، وحطتْ في العريش المحترق.

لم أستطع أن أتركهم، وصممت على قتلِ الحيات ولكنها راحت تصنع حيواتٍ جديدة.

تحاوطوني، دارت الدبابات حولي. محمود ينتظر أي كلمة ليحل محلي.

ماذا أفعل؟

صرتُ معهم، أخففُ من جرائمهم.

أصدقائي الأعزاء أحاطوني بمخالبهم، وَقْدتُ سفينةً محملةً بـــالكنوز والضباع وسط النيل، في كل قطرة ماء ودم، فكيـــف أصـــلُ لعـــرائش الصيادين؟

يمشي على المسرح الأرض، تحيط به ثلةٌ لا تزالُ الشراراتُ والدخان والورق الأخضر المتطاير فيها.

نبذة عن المؤلف

عبدالله خليفة

١٩٨٤/٣/١ -٢٠١٤/١٠/٢١

مملكة البحرين

القصص القصيرة :-

١- لحن الشتاء ، ١٩٧٥.

٢- الرمل والياسمين ، ١٩٨٢.

٣- يوم قائظ ١٩٨٤ .

٤- سهرة ، ١٩٩٤.

٥- دهشة الساحر ، ١٩٩٧.

٦- جنون النخيل ، ١٩٩٨.

٧- سيد الضريح ، ٢٠٠٣ .

الأعمال الروائية :-

٨- اللآلئ ، ١٩٨١.

٩- القرصان والمدينة ١٩٨٢.

١٠- الهيرات ، ١٩٨٣.

١١- أغنية الماء والنار ١٩٨٩.

١٢- مريم لا تعرف الحداد .

١٣-الضباب ،١٩٩٤.

١٤- نشيد البحر ، ١٩٩٤.

١٥- الأقـــلف ، ٢٠٠٢ .

١٦- ساعة ظهور الأرواح ، ٢٠٠٤ .

١٧- الأعمال الروائية الكاملة ، المجلد الأول : اللآلئ ، القرصان والمدينة، الهيرات ، أغنية الماء والنار

١٨- رأس الحسين ، ٢٠٠٦ .

١٩- عمر بن الخطاب شهيداً ، ٢٠٠٧ .

٢٠- التماثيل ، ٢٠٠٧.

٢١- عثمان بن عفان شهيداً ، ٢٠٠٨ .

٢٢- علي بن أبي طالب شهيداً ٢٠٠٨.

٢٣- محمد ثائراً ، ٢٠١٠.

٢٤- ذهب مع النفط ، ٢٠١٠.

٢٥- عنترة يعود الى الجزيرة ؛ ٢٠١١.

٢٦- الينابيع ؛ الطبعة الكاملة ٢٠١٢ .

٢٧- عقاب قاتل ، ٢٠١٤.

٢٨- اغتصاب كوكب ٢٠١٤ .

٢٩- خليج الارواح الضائعة ، ٢٠١٥ .
٣٠- رسائلُ جمال عبدالناصر السرية ، ٢٠١٥ .

الدراسات النقدية والفكرية :-

٣١- الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي، ٢٠٠٤ .
٣٢- الاتجاهات المثالية في الفلسفية العربية الإسلامية ، صدر الجزء الأول والثاني معاً بمجلد واحد ، في ستمائة صفحة ، ويعرضُ فيه المقدمات الفكرية والاجتماعية لظهور الإسلام والفلسفة العربية ٢٠٠٥ .
٣٣- الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية ، الجزء الثالث ، وهو يتناول تشكل الفلسفة العربية عند أبرز ممثليها من الفارابي حتى ابن رشد ٢٠٠٥.
٣٤ - نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية ، ٢٠٠٧.
٣٥ - نماذج روائية من الخليج والجزيرة العربية ، ٢٠٠٨.
الروايات المنجزة قيد الطباعة والنشر :-
٣٦- الأرض تحت الأنقاض .
٣٧- ابن السيد .
٣٨- بورتريه قصاب .
٣٩- ثمن الروح .
٤٠- حورية البحر .

٤١- طريق اللؤلؤ .

٤٢- الأسود والأبيض .

٤٣- كوابيس الحجاج .

٤٤- مصرع ابي مسلم الخراساني .

٤٥- سيرة شهاب .

٤٦- شاعرُ الضياء .

٤٧- ضوء المعتزلة .

٤٨- جزر الأقمار السوداء .

٤٩- نيران الجزيرة .

مجموعات القصص القصيرة المنجزة قيد الطباعة والنشر:-

٥٠- إنهم يهزون الأرض .

٥١- الكسيح ينهض .

٥٢- أنطولوجيا الحمير .

٥٣- سارق الأطفال .

٥٤- شراء روح .

٥٥- قمر ولصوص وشحاذون .

٥٦- ليلة صوفية .

الكتب والدراسات النظرية المنجزة قيد الطباعة والنشر:-

٥٧- كتاب رأس المال الحكومي الشرقي .

٥٨- كتاب تطور الفكر العربي الحديث .

٥٩- كتاب تطور الأنواع الأدبية العربية .

٦٠- كتاب الاشتراكية ومغامرة لينين .

٦١- صراع الطوائف والطبقات في المشرق العربي .

٦٢- أفق الماركسية في الخليج .

- عبدالله خليفة على موقع الحوار المتمدن
http://www.ahewar.org/m.asp?i=1316
- عدد إجمالي القراءات : ٤،٦٤٦،٨٦١ مليون قارئ
- عدد المقالات المنشورة: ١،٢١٨
https://www.facebook.com/profile.php?id=100004799598166
- عبدالله خليفة على وورد بريس
https://isaalbuflasablog.wordpress.com
- عبدالله خليفة على مدونة بلوجر
http://abdullakhalifa.blogspot.com
- عبدالله خليفة على مدونة بينترست
https://www.pinterest.com/isa_albuflasa/pins
- عبدالله خليفة على مدونة فليكر
https://www.flickr.com/photos/127520593@N02

- البريد الالكتروني لـــــ عبدالله خليفة

abdullakalifaboflasa@yahoo.com

- البريد الالكتروني لـــــ عيسى خليفة البوفلاسة

isa_albuflasa@yahoo.com

مملكة البحرين

المنامة - بريد العدلية

صندوق بريد ٥٤٥٢١